عبد العظيم فنجان: **الحبُ، حسب التقويم البغدادي**

عبد العظيم فنجان

الحبُ،
حسب التقويم البغدادي

منشورات الجمل

عبد العظيم فنجان: شاعر عراقي، يغرّد خارج السرب، لا ينتمي إلى جيل شعري معيّن، وينتمي كليا إلى عالم الأزقة والشوارع الخلفية، بعيدا عن عالم الواجهات والأضواء. له إسهامات ثقافية متفرقة في الصحف، وعلى الشبكة العالمية، وبسبب من كسله، ورغبته في العيش بعيدا عن متطلبات العلاقات الثقافية الشائكة، صدرت له، حتى الآن، مجموعة شعرية واحدة: «**أفكر مثل شجرة**» منشورات دار الجمل عام ٢٠٠٩. ترجمت قصائده إلى عدة لغات أجنبية، وهذه مجموعته الشعرية الثانية وتضم القسم الاول من **كتاب الحب**، حيث سيتبعها القسم الثاني تحت عنوا ن: «**الحب، حسب التقويم السومري**» الذي سيصدر قريبا، كما أن لديه مخطوطات ودفاتر أخرى، تتراوح بين الرواية والشعر، في طريقها إلى النشر.

عبد العظيم فنجان: **الحبُ، حسب التقويم البغدادي**،
الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة **لمنشورات الجمل**، بغداد ـ بيروت، ٢٠١٢
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان
تلفاكس: ٠١ ٣٥٣٣٠٤ (٠٠٩٦١)

© *Al-Kamel Verlag* 2012
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إهداء

صديقي العزيز الشاعر خالد المعالي

كنتُ تواقا لأن يصدر كلُّ قصائد الحب التي كتبتها في كتاب واحد، ليس لأسباب فنية وجمالية فقط، وإنما لأوجّه صفعة قوية لمنشدي الحروب، ولحائزي الأوسمة والجوائز على حساب الطوفان: طوفان الألم الإنساني عامة، والعراقي خاصة: هذا الطوفان الذي لم يأخذنا إلى التعمية في الكتابة، ولا إلى التعبئة، لأننا لم نستسلم لغضبه الجبار، بل حوّلناه إلى سبب مباشر للوضوح، ولملامسة الوجدان، غير مبالين بالذرائع النظرية التي نقلت الشعر من حقله الحقيقي كحلقة اتصال ـ انفصال بين الأدب والفلسفة، ولا بالذرائع السلفية التي ألحقته بمباحث العقل، فحوّلته إلى علم.

في قصيدة: «أغنية من قعر زجاجة..» هناك رد مضمر على حفنة المتقاعدين المشغولين بالوشايات، وبحفلات تحضير الأرواح، وبالبحث عن ملاذ آمن في معاطف الساسة ووكالات الأنباء، وبعض صحف الأحزاب، بعد أن إندلع الربيع العربي، وشاع عطره في أزقة العالم.

كان بودي هذا، لكن منطق الشعر يتقاطع، دائما، مع لا منطق الحياة،

فالتطابق بينهما يعني اللا شعر، ويعني أيضا تلك التجارة الرائجة في سوق الثقافة: كل عام مجموعة شعرية يصدرها «الشاعر» يتراكم عليها الغبار والذباب، لكنها ستضاف إلى رصيده من الهراء العام، ولتزداد الغربة، بعد ذلك، بين الشعر وبين العالم.

ما أجمل هذه الغربة، مع ذلك..!

حسنا..

ستلاحظ أنني أيقنتُ بدقة ملاحظتكَ حول المخطوطة الأصلية،، لكنني آثرت أن يصدر القسم المعنون: «الحب، حسب التوقيت البغدادي» أولا، وهي المخطوطة التي بين يديك، لأن درجة اطمئناني إليها أعلى، رغم أنني لم أكفّ عن مراجعتها حتى هذه اللحظة.

ستلاحظ أيضا أنني حذفتُ أكثر من نصف قصائد هذا القسم، وانا واثق من أنني سأندم بعد طبعها، بل سأتمنى لو شطبت على كل المخطوطة، رغم أنني أعرف، تماما، أنك عاملتها بحنان لا يوصف.

ـ «بي من القلق ما يمزقُ بركانا»

هكذا أقول في أحد نصوص المخطوطة، لكن ماذا أفعل إزاء ضغطك عليّ، وإصرارك على أن كل شيء على ما يرام؟

في رسالة ما كتبتُ لك يوما: «هذه القصائد لكَ، وهي تعنيكَ أولا» لأنك تعرف أنني قد كتبت بعضها في مدن وبلدان مختلفة، بل ان بعضها قد ضاعت في الفنادق، في الحروب، وفي الحانات والمقاهي، فأعدتُ صياغتها مرات ومرات، وفي مزاج شعري متقلب، كما أنك تعرفُ خلفيتها

ومعظم اسرارها، ودوافعها، فبعضها الاخر كان رسائل وأغانٍ كتبها «عادل كمال» بطل روايتي: «صانع الاحلام» الذي كان، عبر البلدان، يطارد صبية رآها في منامه، في مغامرة خرافية كلفته حياة باكملها.

هذه القصائد، التي أزعمُ أنها مكتوبة بدموع الشجعان المهزومين، هي لك الآن، ويسرّني أنها قد أصبحت بين يديك، تتويجا لصداقة الهوامش ومعانقة الويلات، وكصرخة يائسة من أجل ديانة الحب..

لقد حملتُ من اليأس سلة صغيرة جدا، وهي حبي الذي أمكن حبكه بالخيزران. .

رينيه شار

مرعبٌ أن احبكَ في مكان هش، كالعالم

صوفيا دي ميللو

أكره العالمَ الذي لا يشبهكَ، كي احبكَ بكل تركيزي، وبكل قواي. .

نادية سالم

أولا ـ موسيقى

مشيّعون على أكتافهم جنازةُ شاعر صعقه الحبُ، بعد أن تجلتْ له صبيةٌ رآها في منامه، يخرجون من صفحات الكتب، من أغاني الحانات، ومن حكايات منسية على الشفاه: يطوفون الأزقة، الشوارع والساحات: يمرون بمصاطب على الشواطئ، وبأسواق تبيعُ المخطوطات، وتعجُّ بأخبار العيّارين والشطّار.

يتدفقُ إلى الموكب فلاسفة، شعراء، صعاليك، أنبياء، سكارى مفلسون، أبطال أفلام ومسرحيات، ملوك وجواري وغلمان من ألف ليلة وليلة: يتكاثرون من قرن إلى قرن، ومن فوق أو من تحت، أو من الخلف، وربما من الأمام، تتسرّبُ موسيقى ناي، من بين فواصلها يسقطُ رذاذُ مطر خفيف، يغسلُ رؤوسهم وثيابهم، ثم يتسرّبُ من عيونهم بهيئة دموع حنونة..

مناديلُ من خلف النوافذ،
امهاتٌ يزغردنَ، وأرواحُ عشاق من كلّ العصور تحرسُ الموكبَ..

عندما يصل المشيّعون إلى المحطة الأخيرة، حيث ينتظرهم اللحد، الذي سيودعونه الجسد المسجى، المضمّخ بالخفي من عطور الشِعر واللهفة، والتيهان في خوابي العالم، يفتحون التابوتَ فتنطلقُ منه، فجأة، أعدادٌ لا متناهية من حمائم بيضاء، هي أرواحُهم..

ثانيا ـ سلة الرحيق

اغنية الكرة الطائشة

كانت لكِ القدرة على رمي أحضانكِ لاستقبال قفزتي، لكنني كنتُ الكرة الطائشة، لا اجيدُ إلا الارتطام بالنوافذ.

كان ذلك يكسرني، وكنتِ تجمعين شظاياي، كأن نصيبي من الشقاوة هو نصيبكِ من الحب، كأن ذلك شدّا من الشَعر بين مجرّتين من الضفائر، أو عراكا بين دقات الساعات التي توّجتنا طقسا من مطر الركض خلف الغيوم.

فيما مضى
كنا نختبئ من الفيض في جِرار الشطوط:
كانت أصواتُ المصابيح تزفنا إلى البيتِ، مثل موكبٍ من الطرق، وكان الليلُ يحبْكُ، أو يحبّك داخل رأسينا، سلالا نقية من الشمس.

لا أعرفُ كيف غرقنا في الظلام بعد ذلك، لكنني كلما حاولتُ فكَّ أزرارَ قميص الزمان، كي تثبي خارجا، من بين أضلاعه، إلى صحن هذه الأغنية، أراكِ ترتطمين بالنوافذ، كما الكرة الطائشة التي كنتُها، فأجمعكِ، كأن نصيبكِ من الانكسار هو نصيبي من الحب، كأن مراسم غرامنا لا تزدهر إلا بشدّ الشَعر بين المجرّات، كأن..

آهـ...

أحدهم أزاحَ المصابيحَ، فتحرّكَ الليلُ من مكانه: هناك شيخوخةٌ ترسمُ تجاعيدَها على جِرار الشطوط، وهناك سربٌ من الجراد يقضمُ الناي، الذي كنا نعزفُ السنابلَ بين ثقوبه.

كانت تمطر ريشا

رفعنا رأسينا: كانت تمطرُ ريشا.

كانت هناك الطفولة، وهي تطلي جدران براءتنا البِكر بهواجس الطيران في غاباتٍ لم نرها قط.

هناك أيضا ينابيعُ، كانت مخبأة كأسرار، في جسدينا، تشقُّ طريقها إلى الخارج: تنمو تحت طيّات ثيابنا، فتكوّن أزهاراً، براكين، وبحيراتٍ لم نكشفها لأحد، خشية أن يكتشفونا نكبرُ خلسة، فيطردوننا من الفردوس إلى جحيمهم.

من أجل ذلك جمعنا الأقاصي في جيوبنا، بعدما أزحنا الممرات، ونفضنا البراري، حتى سمعنا وقعَ خطوات الزمن في الساعات، التي كوّنت أعمارنا.

كان الصباحُ فينا ينهضُ من النوم مبكرا، وهو يفركُ صراخَ الديكة بيديه الناعمتين بعيدا عن وجهينا، معطيا لكلينا تذكرة واحدة، فندخلُ إلى العالم من خلال ثغراتٍ مرسومةٍ على قميصه، لنراه كما هو: عاريا، نظيفا، وراكبا دراجة هوائية، يجرُّ وراءه النهار على مهل، قبل أن يستيقظ زمن التحامنا، وهو ينظرُ، عبر مَسَام الأشواق، كيف يبدأ القتالُ بين روحين تمطران ريشا، تلتقطه العاصفةُ، بأصابعها، وهي تمرُّ سريعا..

ساعتها، ولأول مرة، يكتشفُ الواحدُ منا سلاحَ الآخر لكن، بالرغم من ذلك، كانت اللمسة وحدها تحدّدُ الخاسرَ فينا: كانت أيضا تقرّره منتصرا، تحت سقف الغرفة المبنية من حجرٍ تجهلُ يدانا من أي غبار نيزكٍ لملمته المخيلةُ، وصنعتْ منه غبطة الانصهار في العناصر، حد التحوّل إلى قبضة جمر، تنتقل مع العمر، من سنةٍ إلى سنةٍ، ونحن نكبرُ بنفس السرعة التي نعودُ فيها أطفالا..

كنا قد افترشنا عشبَ الجَمال مبكرين، انحدرنا مع مجراه إلى باطن النور بصحبة القمر، عكس أقراننا الكسالى، مذ طارت أمامي أولُ فراشة من مراعي إبطيك: مذ ركضنا نلتقطُ الأمكنة التي تحطُّ عليها الفراشةُ، وهي تطيرُ، فنتبعها، من مكان إلى آخر، إلى أن كبرنا فلم تعد هناك أمكنة أو فراشة.

غير أننا، في ذلك المقطع المنسي من رواية عاشقين افترقا دون أن يعرفا ما السبب، عثرنا، بين الأمكنة التي جمعناها، على أغنيةٍ:

«كان هناك طائر.
كان يمرُّ، فوق رؤوسنا، وهو يغرّدُ.
أحيانا كان يمرُّ دون أن يغرّد
أحيانا أخرى
كان يغرّدُ دون أن يمرّ..»

غنيّنا، ولم نوقظ أحدا، لأننا كنّا نيّاما، وفي أعماقنا رأينا الشعلة التي تعكسنا في الأغنية، كما مرآة، وسمعنا الطائرَ، من داخل حنجرتينا، ينشرُ البرقَ بجناحيه على الكون، الذي لم يعد غرفة، فأشرقتِ بقوة، حتى رأينا الرعاة، في التلال، يقودون قطيعا من الغابات بأصوات ناياتهم.

سألتُكِ: من أين لكِ هذا؟!
وكنتُ أقصدُ فمكِ، لأنه كان بمرتبة القنديل.

من أين لكِ هذا الغيم؟
وكنت أشير إلى حاجبيكِ.
من أين لكِ هذا الجدول؟
وكنت أقصدُ شعركِ..

.. كانت تمطر ريشا،
عندما رقصتِ في آخر مرة،
لأنكِ تحوّلتِ، من فرط الغبطة، إلى حمامةٍ، وطرتِ.

افتح يا سمسم

أسكرني خمرُ التشرد،
تعتني المنفى، وها أني أترنّحُ بين السُبل:

صرتِ قلما لا يبري إلا نحافته.
صرتِ خيطا لا يرتّق الشقوقَ في ثياب أفكاره. صرتِ سياجا، لا يهدم إلا نفسَه.
صرتِ أسلاكا شائكة، يخافُ الريشُ أن يوقظَ مخالبه بحفيف مروره.

لا أعرفُ مَن كنتُ قبل أن أجدلَ سلتي من خيزران هيامكِ، قبل أن تبعثيني في الأسفار: ألهجُ بمصابيح نورِكِ في طرق الكتابة، لكنني أذكرُ أنكِ حرّرتِ الحرية من أسرها، يوم كانت مربوطة بحبل البلاغة.

أذكرُ أنكِ كسرتِ الجفافَ بجِرار الشطوط، لتسيلَ البلدانُ في خواطر الورقة، فأنتِ الخيالُ الذي يجعل من الإنسان مركزا، وأنتِ شهرزاد: تمدّين بساطَ الريح لتجرجري المنفي من العراء إلى ملكوت جمالكِ.

تتزوقين بالفتنة، ومرآتكِ في الهائمين تعكسُ هديلَ الحمام في غناء امهاتهم.

أذكرُ من لياليكِ كلَّ التيجان، ولا أحفظ من التيجان إلا لمعان سقوطها.

لا أعرفُ عن الحضارات إلا كيف تستقبلُ الشعوبُ قاتليها بالحجارة، ولم أنسَ أن الغابات تدخرُ شكلَ أشجارها، في ذاكرة الربيع، لئلا ينقرضُ التبرعمُ من جذورها.

هناك رخٌ نقل بيضته، من وديان الخرافة، إلى سِحر نومكِ، فانسلَّ منها أربعون حراميا، صاروا يتناسلون طوال الحكاية، يتكاثرون وينتشرون في الشوارع، متأهبين لاقتلاعي من جذوري.

مصيري زورقُ أحلام في لجّة عاصفة:
أمشي مكسورا على جسر خيبتي، فيما الظلامُ يطردُ أبطالكِ، مع فوانيسهم، من ألف ليلة وليلة.

لا أعرفُ لِمَ عانيتُكِ،
ربما
لأنكِ الينبوع،
وأنا الماءُ يسيلُ ليعرفَ طولَ مجراكِ:

أنتِ مني بمنزلة الحزن من الشِعر.
بمنزلة الندى من الصباح
بمنزلة الرصيف من شاعر مهمِل
بمنزلة الحب من المشي تحت المطر.

أشقُّ طريقي وسط الدخان، فلا تقدح شرارة «افتح يا سمسم» لأمسكَ الخيطَ من أوله: أتعبُ، فأسند ظهري إلى حيطان حكايتي في لياليكِ، لأن بيتكِ لم يعد في مكانه، كما أن أسفاري لم تعد كافية للمضي أبعد من هذه المسافة:

أنا
حنجرةٌ تنحدرُ من هدير منسي في قلعة الصمت.

روحي أرخبيل من جزر الخوف،
رأسي مثل شجرة وسط موكب رياح،
وأنتِ المعجزة.

أغنية النقطة تحت باء بغداد

ترانيمُكِ يحفظُها رعاة الصباح، الذين يصنعون النايات من قصب صوتكِ: أنتِ التي، من أجل مرورِكِ، يخرُّ المطرُ صعقا، وترتدي الجداولُ هواجسَ زوارق الأطفال، فيما الفرحُ يتصاعدُ كالبخار من مظلة حاجبيكِ، نجلسُ عرايا تحتها، متلاصقين على رصيف الهوى، ثالثنا الشيطانُ: ينسجُ من وساوسنا قميصَ المغفرة.

أكتبُ اسمكِ على سياج الشِعر، وأرسمكِ نهرا يفيضُ منه الفجرُ إلى البحيرات، ثم أغوصُ عميقا لأجمع البلورَ المنثور في قيعانكِ.

كنتُ أطوفُ معكِ في الشوارع، مصفّرا بلحن حزين، نعبرُ من خلاله الأزقة إلى الساحات، ثم ننحدرُ إلى المقاهي: تدخلين السينما، وأنتظركِ، فأنا وأنتِ مفلسان.. لكن، من افق شفتيكِ، إذ تسردين ما يجري على شاشة روحكِ، تنطلقُ سحابة الانفجارات والحرائق، مربوطة إلى الأرض بخيطٍ من الدم:

ـ كان فيلما رديئا..

ثم تنحنين، فجأة، فأنحني معكِ: نرفعُ ريشة مكسورة سقطتْ من هديل المآذن، أو ننظفُ جسد ترنيمة نسفتها عبوّة ناسفة في حنجرة كنيسة: نلفُّها

بخصلةٍ من شعركِ الأسود الطويل،
نُطلقها
كما حمامة ونضحكُ، مثل طفلين يكتشفان الطيران لأول مرة، بَيدَ أنكِ تقطعين ذلك كله وتجلسين، مقرفصة، في الظلام:

ـ ليتني لم أدخل السينما. كان فيلما مرعبا:
رأيتهم يفركون قميص السماء،
فتسقط زرقتها، قطعة بعد قطعة.
آه،
هناك كائناتٌ من تبن تعفلطُ اللحظة بالتراب.
هناك أطفالٌ يدفعون الهواء، لأنه كسيح
هناك أشجارٌ يتدلى من أغصانها العواء،
وهناك..

تتوقفين.

تبتسمين بأجفانكِ، وقد شعرتِ بي حزينا:
ـ أما زلتَ تكتب رسائل العشّاق في الأزقة؟!

أيتها المنتخبة، من بين الصبايا، كي تصيرَ اماً.
أيتها المختارة، من بين الامهات، كي تعود صبية.
يا مَن تمدُّ رأسها، من نافذة الهيام، كلما عدتُ من سفرٍ طويل، لتسألني:
ـ أما زلتَ تسكرُ، يا حبيبي؟!

تمازحيني.

تضربيني برقة كتفيكِ، فينكسر العمود الفقري لطيف كآبتي:
ـ أما زلتَ تعشق القمر؟!

لكنكِ تواريتِ خلسة، ولم أعد أعرفُ أينكِ:
في أية مشرحة؟!

هل أنتِ موجودة على الأرض،
أم
تبتكرين الطيران، فوق، لأجنحة الملائكة؟!

كما أن شناشيلكِ شاحبة جدا.
شناشيلكِ تلك.
تلك التي كلما وصلتُ عاريا ألقت عليّ قميصها،
فأرتدُ شاعرا:
أعيشُ داخله من دون بدني.

ها أني أطوفُ المرايا
بحثا عن وجهكِ المرسوم بريشة الف ليلة وليلة:
لا أثر، وليس سوى التجاعيد محفورة، كالخنادق.

هل
هذا هو نصيبكِ من الصعود الى ذروة الألم،
أم
هي حصتكِ من بناء عمارة الحضارة؟!

أيتها المولودة تحت القصف، ومن معاينة الأقاصي، والتي كلما تهتُ في

العاصفةِ مدَّ برقُ جنونكِ، نحو متاهتي، خيطا من السِحر أسحبه معجزة بعد اخرى، فيُمطرني ثملا، أرودُ حاناتكِ بصحبة الصعاليك والفلاسفة:

أسمعُ حكمة من أفواه مجانينكِ،

أو

أتسلقه لأكتبكِ على سياج الشعر،

أو

أرسمكِ نهرا يشقُّ طريقه نحو لا تناهيكِ في الخرائط، إلى أن تصيرين جنة، تفيض غاباتها من خواطر الشجر، فأعود طفلا أركضُ في الجهات، لأجمع الرعاة الذين كانوا، عبر القرون، يعزفون أغنية النقطة تحت باء بغداد، تحت نوافذ مدن العالم.

الخيط

خيطٌ يوصلُ بيني وبينكِ، هو طائرٌ رسمناه على النافذةِ، ثم طار..
هو غصنٌ أومأ للطائر أن يحطَّ، حتى أمسى حطبا،
ولم يحط الطائرُ..

كنتُ ألفُّ وجهكِ بدخان يديَّ عندما الغيابُ، بعصاه السحرية، يسوقُ أمامه مقاطع حضوركِ نحو قصيدتي، مثيرا غبار قبلاتٍ زرعها البعدُ، مثل خطوات على الماء مشيناها، مرة، بصحبة النسيم، وكنتِ تلفينَ، بوجهكِ الحزين، دخان يديَّ، عندما الحضورُ، بعصاه المكسورة دائما، يسوقُ أمامه مقاطع غيابي نحو قصيدتكِ، مُتقياً حيطان الصفعات التي تلقيتُها من أجل أن أبني، ممّا تهدم من حياتي، بيتا نلوذ به معا.

لم أعرف أننا ما كنا لنلتقي: أنتِ السفحُ، وأنا الغيمة، أنا الذهابُ، وأنتِ العودة، غير أننا التقينا لأن خيطا ما يربطُ بيني وبينكِ، لكن.. آه نفسُ الخيط يفصلُ بيني وبينكِ..

الملوية . .

تُفلتين وحوشَكِ الممهورة بالسعير، ومن لدن جسدكِ تهبُّ روائحُ مدينة متأهبة للنهب، وأنا لا خيول ولا رماح، أواسي شُعلتكَ بانطفائي، وأسكبُ غابتي في حوضكِ المشمس، كمَن وجدَ فرصته في تقديم الطاعة، بعد عصورٍ من التمرد، لكن في ساعة نحس، فقد جُردتُ من الصفح: لا تملكني مبادرة العيش تحت سقف السلام، ولستُ آبه بالعفو . .

لستُ من نوعكِ:
بي من القلق ما يمزّقُ بركانا.

وصلتِ متأخرة عن عافية العشق تحت المطر: لقد ذهب الزمنُ بساعاتي إلى زمن آخر، لا برهة فيه لرنّة قلب أو خفقة أغنية، أما العصرُ فتوّجني ملكا على خذلانات لا شفاء منها إلا بأخذها كاملة، حتى أنني لم أعد غير هذا الذي ترين: ارتّبُ هزائمي حسب الطول، وأقودها إلى معاركٍ خسرتُها قبل أن تحصل: أنحني على بركة المياه، شارحا لها فوائد إيوائي، أنا الحصاة، وحين لا يجدي ذلك نفعا أغزو زاوية صغيرة جدا من العالم: أحتلها بخواطر من تراب، تاركا للغبار أن يشيّد ملويّته من خرابي . .

مثل نشيد صدأتْ بين أسنانه الحروب

كانت بألف وجه.

كانت تصنعُ من عواطفها معولا لهدم الوقت، وهي تكتبُ رسائلَ حبٍ إلى كائناتٍ لا تخطر إلا في خيالها الشاسع الانوثة: تلعبُ هذه اللعبة، ربما رغبة في الانتقام أو توقا للمصالحة، مذ رفس الرجلُ قلبها، هي المتوجسة من رقّة أجفانها، حتى تحوّلت حياتها، رسالة بعد أخرى، إلى تلٍ من الرسائل ينشرُ لواعجها، عبر الشبكة العنكبوتية، فوق هامات رجال مجهولين، لا تعرف أشكالهم، لكنها تبتكرهم يشبهون رجلها الذي ينام، كل ليلة، مع امرأة جديدة، ويحدثها عن عاشقة تكتب له، عبر الآخرين، رسائل حب: يشمُّ ذلك بخياله، ويعرف أن جلَّ ما تملكه هو هذا: المشي فوق حبل من الكلمات لا تعني إلا أنكَ مقدسي الفاتن، الذي سأنسفُ رأسه، يوما، برصاصة الهدنة.

ـ «سأنسفُ روحكَ بموجة».

كتبتْ لي مرة، أنا الذي صادفتها في مدينة ساحلية، قلوبَ أهلها من الصفيح، فعرضتُ عليها أن تدخل روايتي «صانع الأحلام»[1] من أوسع

(١) «صانع الأحلام»: مخطوطة روائية للشاعر.

أبوابها، لتكون البطلة، ولم توافق إلا بعد ما تشرّدتْ في شوارعي الخلفية، وطارت بأجنحة حقيقية من مدينة إلى مدينة، لأنني دربتها، أثناء ذلك، على ممارسة اخرى، أكثر جدوى من كل تلك الرسائل، هي العوم في حوض مخيلتي، وتدخين الترياق.

أحببتها بكل بساطة، ووقعتُ مغشيا على جمالها النادر حدوثه إلا في السينما، لكنني، وأنا أكتبها، فوجئتُ بها عارية مع قبطان في سفينةٍ، صعدتُها صدفة، باحثا عن وجه كنتُ اطارده منذ بداية التاريخ:

في تلك اللحظة عرفتُ معنى أن أكون شاعرا، وأن أكون مجروحا إلى الأبد.

لم أطردها من الرواية، وتركتُ لها حرية أن تنام مع مَن تشاء، حتى كفّتْ، وحدها، عن العوم في حوض ذاكرتي، ثم غابت عني، مع دخان مصيرها، إلى حيث العالم.

هكذا، مع الأيام، كوّنتْ اسطورتها: كل رجل عرفتَه، كل وجه رأتَه أو تخيلتَه، هناك رسالة منها تحت وسادته. وهكذا أيضا كنتُ ضحيتها، رغم أنها، حتى بعد أن نفذ الترياق، وانتهتِ الرواية، ظلتْ تعتقد أنها ضحيتي.

كانت بألف وجه.
كانت تضع قلبي مع النسر، وأسفل القفص تجمع صراخه.
كانت تسد الجهات، وكنتُ أصيح بها:
«إلا الجهات، أرجوكِ، فأنا في العراء»
لكنها تأمر باسم الأقفال، وتفعل بمطلق المفاتيح:

«أجلدكَ لأنكَ السوط،
أخنقكَ لأنكَ الهواء، وأدفعكَ لأنكَ الهاوية»
وكنتُ أصيح بها:
كفي،
فأنا كالنهر، أمام السد، يجب أن أفيض.

الآن، مع الليل، تهبط ذكراها، في هذا الفندق الرخيص، ويندلقُ وجهها في غرفتي، مثل نشيد صدأتْ، بين أسنانه، الحروب.

أغنية فارسية

أحتفظُ، مازلتُ، بأغنيتك الفارسية، رغم أني لا أفهمُ منها شيئا، لكن ارتجافي تحت مظلة الهاتف، وأنتِ تغنّين، لا زال يهزّ الشجرة المرسومة على قميصي، فتطيرُ العصافير منها، محلقة نحو الأبعد من حبنا، حيث الشمسُ ريشةٌ ذهبية تشقُّ طريقها، بخفة، عبر الضباب، في الصباح البارد، في الصباح البارد الأخير، عندما ذهبتْ بكِ الطائرةُ إلى منفى آخر، وذهبتْ بي الأيامُ إلى التقاويم:

البلدانُ حفنةُ غبار مرشوشة أمامي، وأنتِ متاهةٌ من الأحلام والكتبِ، متاهةٌ من الشوق الذي يشطفُ القلبَ بخرائط ملتوية كأزقة «قم»[1] القديمة، وأنتِ..

شيئا فشيئا، تختفين في العالم: يولدُ لكِ أطفالٌ هناك، وهنا ـ من اغنيتكِ الفارسية ـ يولدُ قرّاءٌ يفهمونني، لأنهم مثلي ومثلكِ مصابون ببشاشة الخيبات، وأنوارها الساطعة..

(١) «قم» مدينة إيرانية، سكنها الشاعر في فترة معينة، تتميز في كون أزقتها ضيقة، ملتوية حول نفسها، كأزقة مدينة النجف القديمة، أو كأزقة الحيدرخانة، في بغداد..

كسوط يجلد نفسه

كمفتاحٍ دخلَ قفلكِ: فتحه وانكسر.

كشبحٍ ممزقٍ، في مؤخرة جيش خاسرٍ، ليس له أول، رغم أن وجهكِ هو المقدمة: وجهكِ الجميل، النادر تكراره، الذي يتقدمُ، الذي يتأخر، من أجلي، فلا اقدّم خطوة، ملتفتا إلى الوراء، حيث العشبُ المحروق يستعيدُ اخضراره، كلمّا غسلتُه بنظرة.

لن أنحت إلا هيبة الحريق:
سأخيط الثغرات في ثياب النار، التي التهمتْ حياتي، لكنني لن أحتفي إلا بخذلانكِ.

لن أكتب عن عبقرية جمالكِ المتماسك كقلعة رومانية، فأنا شاعرٌ مختلٌ، ينفرُ من كل قناعة أكيدة، لا يرى في العالم الذي تطوفينه، بحثا عمّن يشبهني، إلا حبل غسيل، منشورة عليه أقنعة زائفة، أما الجوهر فصدفة لا تحصل إلا صدفة، فيما الحبُ هو المعجزة، لكنها لا تحدث وأنتِ تجعلين من نهديكِ زهرتين اصطناعيتين، و من فمكِ تفاحة هزيلة، تزعمين أنها منهوبة من الجنة، كما أن اناقتكِ الباذخة، إذ تجمعين اللعابَ الذي ستفرزه بَشَرة أثوابكِ، لا تعكس إلا اختلالكِ الباطني، أما حبكِ المتأرجح بين

أحبكَ وأحبكَ، لا يعادله في الإقامة بين طيّات ذاكرتي إلا ظل المشنقة في ساحة إعدام، إذ يترنح الحبلُ، وهو يمسكُ بعنق الغبار في يوم عاصف.

لا أكتبكِ الآن، الا من أجل أن أفسر كيف بصقتكِ،
. . و لماذا؟

كيف تطهّرتُ عندما بكيتكِ، كيف هشّمتُ وجهكِ، وجهكِ الجميل النادر تكراره، وكيف تقيأتُ نبرات صوتكِ، صفاتك الألف، ثم كيف تحررتُ، فحوّرتكِ عائدا بكِ إلى الأصل؟!

هكذا صارت خسارتي شِعرا، وهزيمتي أغنية، لأنني لم أجدني إلا طافيا على السطح، بعدما غصتُ في عمقكِ، بحثا عن السر الذي ينبجسُ منه دواركِ، وهو يطيحُ برؤوس الآخرين، فيسيرون في نومهم، كإطلاقات طائشة، لا تعرف أهدافها، لكنها تصيبُ وترتدُ عائدة إلى مشاجبكِ المكتظة بالزحار.

ها أني في قارب مثقوب ـ البحرُ غاضبٌ من فرط حنانه ـ هاربا بحصتي من الهزيمة، بحصتي من أخطائي الجميلة، فرحا بفرصتي في معانقة الإعصار، و بانقلاب القارب صوب عمق آخر، كمن عثر على الوجه الهارب للزمن، وهو يعبركِ، تاركا لكِ المسرح المكتظ بأوهامكِ، وأنتِ تبحثين عمّن يشبهني في العالم، على أن لا يكون شاعرا مختلا، ينظرُ إلى العالم كحبل غسيل، وأنتِ منشورةً عليه كقناع زائف:

أنتِ السوطُ الذي يجلدُ نفسه عندما لا يجد في حوزته أحدا، كحبل الإعدام الذي يخنقُ حفنة من الغبار في يوم عاصف، يتأرجحُ فرحا، عندما الفراغُ وحده في الساحة، فيما أنا الآهةُ، الآهة التي تبحثُ عن قلبٍ ممزقٍ

بصدقٍ: قلب خاض الهزيمة ولاكته بأسنانها. هذا القلب، وحده، يتقن معنى الآهة، ويعرفُ كيف،

متى،

وأين يعزفها. .

أكرهكِ

اريدُ ان أنسفَ حبي، وأبعثركِ، كما لو كنتُ لم احبكِ من قبل: كما لو كنتُ لم ألملمْ من مرورِكِ، في حياتي، حياتي التي بعثرتها المنافي، وفتتها الحروبُ.

اريدُ أن أهدمَ كتفيكِ، وافجّركِ.

سأنثرُ شَعركِ على الغابات والأسلاك.
أنشركِ على قميص العاصفة،
اوزعكِ على أعمدة الكهرباء في الأزقةِ،
وأرسمُ تقاسيم وجهكِ على وجوه الخائبات.

سأتركِ تنبتين، هناك، على جلد الحَيرة، مثل زهرة يأس، ومن عروقكِ تشعُ شمسُ الفاقة، فأقطفكِ.

سأرشّكِ على الأرصفةِ:

ابعثركِ في مخيّلات السكارى، على طاولات الحانات، وأجرحكِ بين طيّات دهشتكِ:
سألمُّ حطامكِ لأكسركِ، ثم أنفضُ الغبارَ عما اقترفتُ: أتوبُ من كل

ذلك، وأرسمكِ كما أنتِ، لأسرقكِ.

سأشوّهكِ.

الطّخكِ بي، وامزقكِ.
سأرمي بنفسي إلى داخلكِ:
أنفجرُ فيكِ،
لأنسفكِ.

اريدُ أن أصوغكِ، أبتكركِ
ثم
أضيعكِ.

سأبكي،
أتلوى من الألم،
حين أصحو من السُكر في ينابيعكِ.
سأهيم، في الشِعر، بحثا عن رموزكِ،
وسأبسطُ راحتيّ تحت صنبور غيابكِ:

قطرة بعد قطرة ستمتلئ البحيرات بوجهكِ، ويصير العشبُ اسما لأجفانكِ، أما الزوارق، على قميص البحر، فأطيافكِ..
لكنني
سرعان ما أعود الى أول الأغنية:
سأطيرُ، كما طفل، بين غيوم حواجبكِ.
هكذا

استفزُ هدوءكِ.

سأرتدي حنوّكِ، وشُعاع برقكِ، وأركض بين القبلات، بحثا عن بصيص فمكِ.

سأشربكِ بيديكِ، وأنا أبحثُ عن يديكِ.

سأخلطكِ بالجحيم إن كنتِ الفردوس،
وبالفردوس إذا كنتِ الجحيم.

سأستاء طبعا.
سأستاء،
لكن باستيائكِ.

سأشدّكِ من جَمالكِ إلى جَمالكِ، وأشتمكِ.

سأحكم وثاقكِ إلى طولكِ،
اجرجرُكِ من دموعكِ،
ثم
أركع باكيا:
سأبكي من لطف ضمادكِ على جروح قسوتي، سأتضاءل أمام إعصار حزنك، وأسيلُ مغسولا بأنحائكِ حتى أصيرُ يتيمكِ، لكنني لا اريدُ ذلك:
اريدُ أن أكون مجنونكِ.

اريدُ أن اشرّدكِ في الشتاء، أن اخرّبكِ في الربيع، وأن اصحّركِ في

الصيف، ثم أكفُّ عن كل هذا، لأتساقط ورقا يابسا، من شجرتي فخذيكِ، في الخريف.

أسقطُ مكسورا ولا تلملمني إلا فراشاتُ أوصافكِ، فاشرّدكِ في المطر:

اجرّدُ عينيكِ من البحر في الربيع، واشعلُ بصيف تموزكِ الصيف، ثم أسيلُ عَرقا، صاعدا كالشلال إلى ابطيكِ: ألتقطُ ريشَ عبوري، على جسر ذراعيكِ، من مَسام ذراعيكِ.

اريدُ أن أصيبكِ بحبي، لأخرّبكِ.

هكذا..
احبكِ واخربكِ:

اجرّكِ إلى الأرق، اغطيّكِ بالسهاد.
أقودُ جيوشي ضدكِ:
احاصركِ،
أكشطُ السماء عن مدنكِ، واحيطكِ،
ثم
فجأة أنكسرُ أمام عزلتكِ:
أغسلكِ بالنوم، امشطُ أحلامكِ بالأغاني،
وأرتعشُ لفرط حنانكِ.

آهـ...
اريدُ أن احبكِ..

أخافُ من مرآتي أن تكسرَ جمالكِ

أنا الفزعُ والخرائبُ، وأنتِ الطيرانُ.

ينبغي أن أنظّفَ لحية فوضاي، أن أنيرَ أعماق الشمعةِ، وأن أحلقَ لحية حرّيتي، فلستُ ناصعَ البياضِ، كما جوهركِ.

أخافُ عليكِ من اليأس الذي نصبتُ، بين ضواحيه، خيمتي، و من الريح التي سأكونها لو اهتزتْ سعفتي بين عيدان مشطكِ.

أخافُ أن يخطفَ رعبي غبطتَكِ بالمطر، و نشوتَكِ عندما يصدح الصباحُ في حنجرة بلبل.

أخافُ
من مرآتي أن تكسرَ جمالكِ.

ما كنتُ هكذا لأن الله خلقني من أربع جهات، وجعلني صافيا، كقلب الجمرة.

ما كنتُ أشعثَ القلبِ مثل باقة شوك، ولا حافي الروح يرتدي جسدا مفخخا بالكهوف، لكنهم أعطوني، من التاريخ، الصحراء والسيف، وأخذوا الوردةَ.

أيتها المرأة الحمامة

لم يعلّموني كيف أرسمُ ريشكِ في المدرسة: مسحوا هديلكِ المكتوب على سبورة الصف، عندما كان العالم بريئا، ورسموا بدلا منه الحرابَ على زجاج النوافذ.

كانوا كلما كسروا نافذة بنشاز أناشيدهم يهتفون: لم نخسر الحربَ بعد، لقد خسرنا معركة، حتى، ذات يوم، ألبسوني خوذة لئلا تحلّق هواجسي بالقرب من أشواقكِ.

وكما لو كنتُ قد خرجتُ من رحم دبابةٍ، أجبروني أن ارتدي المعدنَ.

صاحوا، وهم يطلقونني كالوحش في البراري: أطلِ قلبكَ بالطين، لئلا تراكَ المرأة.

قالوا: هنا نقطة ضعفكَ، وهم ينقبّون فيه عن بصيص دفئكِ، لأنهم رأوني أحلمُ بأني أحبكِ، قبل أن أولد، فأصيرُ بشرا.

أما الثكناتُ فقد لقنتني أنكِ كائنٌ ناقص العقل، وأنَّ عليَّ أن أفترسَ حدودَ تحليقكِ بعيني نسر، لأنكِ قد تكونين عدوا متخفيا.

صرتُ أخافكِ.

أخافُ حدودكِ،
لأنكِ حدودُ حنان الأمهات الذي لا يُحد.
لأن كمشة من ترابكِ تقود العميان الى نورهم.

أخافكِ صرتُ:

صرتُ أحشو بندقيتي بالمواعظ، ومسدسي بالحكمة، مع ذلك لم أنتصر، ولو مرة، في حياتي، لأنكِ الطيرانُ، وأنا الفزعُ والخرائبُ.

كنتُ أعرفُ أن ظلكِ هو الموجة،
وأن الله خلقني كي أعومَ في حوض حنانكِ.

كنتُ أدركُ أن في تقاسيم وجهكِ بلاغة الحزن،
وفي دموعكِ اختصار العصور.
كنتُ أرى، في خطوط راحتيكِ، بيتَ المساكين، وفي صدركِ تسيرُ الجداولُ التي في مجراها يلبطُ الأمانُ.
كنتُ أشكُ في نصاعتي، لأن الظلام بكامل قيافته كان يتجوّلُ في داخلي، لكنهم درّبوني على أن أجرجرك إلى حصة الرمل، التي من أجلها صرتُ ساخنا، كالغبار.

كلما رأيتُ قمرا أطلقتُ عليه الرصاصَ، وهيأتُ المائدة، ليقاسمني الليلُ غنيمتي من السُخام.
كلما ومضتْ نجمة في طريقي، أطلقتُ صقرا ليلاحقها مجرة بعد اخرى.

هكذا طاردتكِ من ضوء إلى ضوء، إلى أن نفدتْ المجرات، ولم يعد هناك شيء اسمه الشمسُ أو القمر، لكنكِ لبثتِ مشعة في الأرض، حتى انكشفتْ لي نفسي، ورأيتُ كم هي موحلة، فتقيأتها دفعة واحدة.

لم أنظفْ بعد.
ولأن الروح من فحم، لم يعد ممكنا أن ألمسَ الدرَّ، كما أنني صرتُ أخافُ أن اجرّكِ إلى هاويتي.

أخافُ أن أجففَ مياهكِ:
أن أتسلى بتحوير أمواجكِ إلى صفعات، ورعاة تلالكِ إلى جواسيس.
أخافُ أن أحوّل الناي إلى ناظور، وترنيمتكِ إلى نشيد حرب.

أخافُ أن أدوسَ بأقدامي أرضَ روحكِ، كما لو كنتِ ساحة معركة، كما لو كنتِ قرية أسدُّ عليها الهواءَ، وأخنقُ الممرات.

ها أنتِ في القصيدة، وها أني أجهلُ في أية جملة أخبؤوك، لأن قنبلة ما، نسيتُ تحت أي سطر دفنتُها، ستنفجر فجأة.

أخافُ
أخافُ أن أعيشكِ، كما عشتُ في اللاعيش، وفي الملاجئ.

أخافُ أن أخونَ غيابكِ، فأخسرُ قسمتي الوحيدة من الأمل، أو نصيبي القليل من النصاعة.

كم أريد أن ألوذَ بوجهكِ، وهو ينفجرُ كينبوع في مخيلتي.
كم أريد أن أغتسلَ بقيعان نومكِ.
كم أريد أن أطيرَ في هوائكِ الطلق، مثل ريشة من دخان.

لكنني ارتجفُ من الذعر كلما نظرتُ إلى بهائكِ في المرآة، فالجمالُ يصير مرعبا إن مات في الكائن قلبُه.

أخافُ أن أقول: احبكِ، وفي فمي فتيلُ قنبلة.
أخافُ أن أقودَ أقدامكِ، وعلى الرصيف أغنية تحتضر.
أخافُ أن أنام على سريركِ، ومن مسام جسدي تشع أبواق الثكنات.

أريد أن أعودَ سليم القلبِ،
كما في الطفولة،
فلستُ جميلا كما ينبغي.

لا أريد أن تحبينني وأنا محشوٌ بالقتلى.
أخافُ، أخافُ
أن تحملي مني وحشا..

سلة الرحيق

مرة اخرى نتقابلُ أمام مرايا لا تعكسُ أحدا.

كنتُ أظنكِ قد قُتلتِ في الحرب، أو جننتِ في المجاعة: اعتقدتُ أن روحكِ قد تصاعدتْ مع الدخان، في الحرائقِ، فأسميتُ الدخانَ سلة الرحيق..

تخيّلتُ أن جسدكِ قد انصهرَ مع القصف، تحت الأرض، وذاب في العناصر، فتحوّل إلى بقعة زيت، ستبعثُ الدفءَ في قلب العالم البارد العواطف، ومن أجلها، الآن، تتنافس الاممُ..

وها أنتِ، على قيد الشِعر، مأهولة بالزرقة:
مكتظة بالقصبِ، بالزوارقِ، وببط الشطئان: مليئة بغبطة الجاز الشرقي، ببحة الناي في حنجرة فيروز، وببريق الدر في صوتها.

ها أنتِ مرة اخرى:
مجنونة بالسهر قريبا من شهقة البرق، على سرير القصيدة.
تخلعين على الغيوم ألقاب مطرٍ ما مرَّ من تحته كائنٌ ما، إلا وهامَ بحثا عن قطرةٍ، هي كثافة الدمع واختصار الوطن، عندما الغبارُ، على القدمين، هو الطابعُ المُلصق على بريدكِ:

تتنقلين، مثل رسالة، إلى لا أحد معيّن، بعد أن اتفق الشيطانُ والملاكُ أن تكون حياتكِ هي ساحة حربهما:

حياتكِ، حياتكِ لوحدها، حياتكِ المفتوحة الأبواب لكل قادم، سواكِ.

لكنكِ،

إخلاصا للملح، والتصاقا بجمرة الجمال، لم تأكلي من يد الوحش، لم تراقصي الشيطان، ولم تهزّي إليك شجرة الغروب إلا ليتساقط، بين أحضانكِ، بصيصُ الغسقُ.

لم أنسكِ يوما طوال المنافي التي انطفأتُ، مثل عود ثقاب، وتلاشيتُ وسط الزحام، في ظلام ظلامها.

وجهكِ الذي رأيته، كما لو في منام، كان دليلي نحو وجهك المرسوم على أغلفة المجلات، في قسمات وجوه عاملات المطاعم، في وجوه العابرات في شوارع مفخخة بعبواتٍ ناسفة، والمخبوء أبدا في مناطق منسية من قصائد العابرين على مشهد الشِعر، دون أن يقولوا.

وجهكِ وحده.

وجهكِ،

وهو يفيضُ فوق كل السدود، كان زادي الدائم، حين الجوعُ، تحت شمس الآخرين، يدعوني إلى وليمته الفاخرة وأقبلُ، لأن جوعا إليَّ، في عينيكِ، ينتظرُ أن أمدَّ جوعي إليه، رغم أنني كنتُ مكتفيا لأن، في الهواء، نسمة من رئتيكِ لابد أن تمر يوما، فأشبع جوعي بجوعكِ لأن نعودَ إلى البيت الذي تركناه خاليا: يدخله اللصوصُ، فلا يجدون فيه سوى قفصٍ،

يبيعونه، في الأسواق، فيما أنا وأنتِ داخله، نتبادل القُبل، وسط قسوة العالم وبلاهته.

وجهكِ، وجهكِ..

آهـ...

كان حريا بي أن أركضَ وراء حافلةٍ، في مدينة غريبة ألصق عاشقٌ ما، على أحد جوانبها، صورة ممثلة تشبهكِ لأنكِ، ساعتها، بكاملكِ.. بكامل وجهكِ، بكامل حبكِ الناصع، كريشة تطير في فضاء الخنادق، تجليتِ واضحة وسط منفاي، وتكاملتِ كلكِ برمشيكِ: تضغط على سفوحي بأمطارها، دمعة بعد دمعة..

لكن الحافلة ضاعت في زحام المنافي، التي جرجرتْ هيامي فيكِ إلى قيعانها المنخفضة، منفى بعد منفى، ولم أتوقف، رغم ذلك، عن البحث عن تجليات وجهكِ بين الصور، على جوانب الحافلات، حتى بعد ان توقف الوقتُ عن المشي في مدار الزمن، فواصلتُ الطيران وحيدا.

وصلتُ مدنا تتسول تجاعيدها من المارة.

تعزفُ فيها، ليلا، فرقٌ غامضة، موسيقى حزينة، تتسربُ من الجدران إلى شوارع تمشي بنفسها داخل نفسها، مع جوقة من الأشباح، وراقصات أنام بينهن، مفترشا غيابي عني، كمن نسي على أي حبل غسيل نشر جسده، ولم يبق من ذكراه إلا ثيابا ترتديه، متسائلا، على أنغام موسيقى الفرق الغامضة: مَن الذي بقيتْ له كرامة الإنسان؟ أنا؟ أم ثيابي التي بعتها، هي الاخرى، لأشتري صورتكِ أخيرا: معروضة كانت على رصيف ما، لم أعد أتذكر كم كان ثمن الموتُ فيه، إن لم أمر عاريا أمام ساسة، سيقودون عربة حياتي من دون جياد؟!

لم أنسكِ يوما،
يا قمري، يا نجمتي، يا حبي
ويا شرفتي المكسوّة بالقبل، حتى آخر شفة:

تذكرتكِ في الحرب، وأنا أعصرُ، بين فخذيَّ، خوذة، محاولا أن أنتزع رأسي منها.

بكيتكِ في المجاعات، عندما خرجتُ، من فم أحد أمواتنا، سنبلةٌ تدفعها، من جوفه، نملةٌ..

وكثيرا شربتُ عطشكِ.

شربتُ عطشكِ وسكرتُ، حتى عبرتُ الحد، وهناك شربتكِ ثانية، لأن عطشكِ كان عطشا من نور لا يرقى إليه إلا عطشكِ، ولم أتوقف عن ذلك حتى عندما انكشف الغطاء فرأيتكِ ولم أركِ، رغم أن عطشكِ توقف عن الجريان ـ ربما منعا للتجول ـ فصار حجابا، حتى أنني لبثتُ هناك، في غيابة الجب سنينا، أرسمُ وجهكِ على جدرانه، وأتسلقه خطا خطا، لكن الأوان كان قد فات حين وصلتُ السطحَ، فقد كنتُ أحمل العمق، في داخلي، من يوم ولدتُ.

دائما كنتُ أحملُ العمق، ولم يفهم ذلكَ إلا أنتِ.
لم يحمله أحدٌ عني إلا أنتِ، كما لو كان ذلك طفلكِ الذي تنتظرين أن يولد خفيفا: مثل قشة عشب تحتفظ، دائما، بروح العاصفة التي نقلتها من حقلها الأول، فتطير شوقا، مع أول نسمة.

لم أنسكِ لحظة، لذلك ارتجفتُ، كثيرا، من كثافة حضوركِ في الأماكن.

ارتعشتُ من كثافة الأماكن فيكِ أيضا.

وعندما، ذات يوم، رفعتُ يدا مبتورة في حقل ألغام، وطارت فجأة، من تحتها، فراشةٌ، رقصتُ وهتفتُ:

هوذا وجهكِ يتجلى أخيرا.
هوذا العمق الذي لم يره أحدٌ يلمعُ في داخلي.
هوذا ربيعكِ أيضا.
هوذا ينبتُ، على الأسلاك، رغم سُخام العالم.

مرة اخرى نلتقي في مرايا، لا يعرفُ فيها أحدٌ أحدا.
إذاً، فالموت لا زال جادا بسعيه:
إن كان علينا أن نسقط،
فلنسقط
فلنسقط
فلنسقط
لكن
كالبرق،
الذي عادة ما يشرق
قبل أن يسقط.

ابايعُكِ على إرث الجَمال

إلى شاعرة

خُذي نَفَسَا عميقا من الليل:

نَفَسَا عميقا جدا من بريق النجمة، التي لم يرها أحدٌ إلا واستغنى عن عينيه، مسترشدا بما في داخله من نظرة باطنية، لم يُكتشف أمرها: من أين جاءت، ناصعة..

ربما من ضباب المجرات، عندما العقلُ ذهب إلى النوم، فحلّ غيابُه القماطَ، عن بدن الخيال، ليلعبَ طفلُ الروح على هواه.

خُذي نَفسا عميقا، عميقا جدا، من الهواء:

تملئين به رئة الريح، حين تسقط عن جناحيها رغبة اللعب مع قشة العشب: هي روح الشاعر منقولة على بساط التنهدات،

من جسد إلى جسد، حتى استقرتْ، أخيرا، في عروقكِ، فصارت ريشا يحرّك الحياة في جسد العاصفة، التي نسيتْ في أعماق أي شاعر، قبلكِ، تركتْ ثيابها.

أنصتي جيدا:

هناك صرّة أصوات مرمية في وهاد الصمت.

هناك مقطعُ من البرد يعزفُ ارتجاف أعمدة الكهرباء.
هناك رعبُ الطيور فوق أسلاكها،
وهناك الأحلامُ التي تضربُ بعضها البعض بالحجارة.

وكمن انتظر طويلا.
كمن آمن ألاّ يحصل شيء مدهش إلا بحضوره.
كمن لا يتوقع حدوث إلا ما هو خارق.
شاهدي المساءَ يُقذفُ من النافذة:
شظايا زجاجه المنثور على الأرصفة ربما هي قلبكِ، فاتركيه.

اتركيه هناك مع الحطام، يُداس بأحذية المارة.
لا ترفعيه.
لم يُعد يُسمى، هذا الملقى من النوافذ، قلبا:

اتركيه،
فلم يعد صالحا لمواصلة الرحلة.
سيأتي مَن يجمعه غصة غصة،
سيأتي مَن ينهبه، كمصباح،
وسيأتي، أخيرا، مَن يحطمه على المصاطب،
مصمما على الذهاب إلى الله بقلب مظلم.
لا تأبهي لذلك:
يوما ما سيبتكر إنسانكِ الداخلي قلبَه الخاص، وستتركينه مطمئنة، إذ لم يعد عرضة للانتهاك.

اتركيه عند حافة كل هاوية،

تحت مقصلة نفسه، كما فعل من قبلك الشعراء.

اتركيه يرفرفُ،
مثل
علم مكسور في مقدمة موكب لا يسير فيه أحدٌ سواكِ، وامشي..

خذي راحتكِ بالمشي بين الأشباح:
شبحٌ بعد آخر سوف ينسحبُ الجميعُ، ليخيطوا الشقَّ الذي تواصلين فتحه، بلا هوادة، في ثياب العالم، وأنتِ تفلتين من الجسد، فلا تنفذين أخيرا، إلا وقد تركتِ هيكلكِ العظمي هناك، مثل ذرة غبار سقطتْ من حجارة الزمن..

امشي كمن يقود جيشا جرارا، لكن أينَ ما التفتَ، وابتدأتِ المعركةُ، وجدَ نفسه وحيدا.

هناك وقتٌ طويل ينتظركِ في ممر المجازات، رافعا ضدكِ ومعكِ سيف المخيلة، غير أن الاستعارات ستدفع بكِ عن الموت بعيدا.

سلاحُكِ جرحُكِ الذي لا تعلمين مَن زرعه عميقا فيكِ، ولماذا؟

من جرح إلى جرح:
في معركة بدأتْ قبل أن يتعرّفَ البدءُ على نفسه: من خندقٍ إلى خندقٍ، فيما أنتِ تواصلين رشّ الملح فوق كلّ جرح، خذي معكِ بشاشة حلمكِ الطائش، البديع: أن هناك مدينة ما، تنتظرُ منكِ تشييدها بإشارة من صفير فمكِ، أو بنظرةٍ غامضةٍ تكتبها هواجسُكِ على هامة الفراغ، وعندما أخيرا

تصنعين المدينة، ولا يعترف بصنيعكِ أحدٌ، ابتسمي لأن فكرة السمو قد تعفنتْ في رأس الملاك، والشيطانُ لم يعد أحدا بعينه. .

لا بأس.

نامي، لبرهة، تحت جسور مدينتكِ التي بنيتِ، كما فعل الأنبياء، الصعاليك، والفلاسفة، وفي كل صباح، بقناعة مَن عرف نفسه أخيرا، ردّدي مع الفقراء لازمتهم البسيطة:

«الله كريم، الله كريم»

ثم

امضي وحيدة: زادكِ الغناء.

ابتسمي عميقا، فالنار لم تجفّ في شعلة القصيدة، كما أن هناك مدينة اخرى بانتظاركِ.

لا تنسي شيئا من عدتكِ الأزلية:

جرعتكِ النقية من السهاد، حتى تسقطين مغشيا عليكِ أمام كِسرة مرآة، ينكرُ أمامها وجهُكِ وجهه.

لا تنسي حصتكِ من الخذلان، فلا كائن سيحنو، ولا بيت يُعيرُكِ سريرا تموتين عليه، ولو للمرة الأولى أو الأخيرة.

مع ذلك كله خذي حصتكِ الضئيلة من الأمل.

خذي الغصّة أيضا.

اكرعيها بكامل أشواكها وابكي، لأن العالمَ لن ينظف إلا بأن تغسلي قدميه بينابيع دموعكِ.

خذي ما لا يؤخذ، وكأنكِ منذورة له:
صفعة قوية من حبكِ الخائب، الجميل.
صعقة الأشواق، تحت شمس المنفى.
وقيعان الغرق،
المالحة، المالحة، المالحة..

الآن،
وقد دفعتِ الثمنَ، وانتهتْ رحلتُكِ، التي سيبدأوها كائنٌ مثلكِ، من مكان آخر، لم يعد مهما إن وصلتِ فاقدة النطق:
أيماءةُ من رأسكِ المنسي على أعناق الرماح، ستوجزكِ كما يوجز الدرُّ نفسه دون أن يقول.

ليس مهماً أن تصافحي أحدا.
أن تبصمي على عهد.
أن تكتبي كلمة في دفتر الزوار،
أو
أن تلوحي للماضي:
لكِ العذرُ في ذلك.
ربما،
أثناء الرحلة،
نسيتِ يديكِ تواصلان السباحة في بحر ما، لكنكِ عبرتِ إلى الجانب الآخر منه من دونهما، فهما، أصلا، رفيقان زائدان عن الحاجة.

إنما تعالي، بخفة طير وجدَ عشّه الضائع في الغابات، منذ قرون: الشِعرُ

يناديكِ لتقابليه، وجها لوجه.

سيخلع تاجه من أجلكِ،
وينحني،
كما انحنيتُ لقامتكِ العالية،
مبايعا إياكِ على إرث الجمال..

كيف يكون الجمال صاعقا . . ؟!

أيها الشِعرُ

إجمعْ جدولَ حنان حبيبتي، عندما يسقطُ شعرَها بين راحتيكَ، واصنعْ منه قصيدةً يجمعُ الناسُ، بإنشادها، أحلامهم التي لم يروها في خضم الحروب، لأن دخانا من السهر كان يمنعهم من الطيران، بين الأشجار، التي فيها تبني الطيورُ الأعشاشَ من عيدان مشطها.

من بين قوسي أجفانها قل لشمس الكتابةِ أن تشرقَ، وأن تغربَ من حيث يرتفع الرخام، الذي بُنيتْ منه عمارة نومها . .

من مقاطع هدوئها، يا شِعر، اعطِ المكانَ حيزا لمكانه، الذي ينامُ فيه الزمنُ ويتوقفُ الوقتُ عن الدوران، باحثا عن سرير يستريحُ عليه، في زوارق ساعاتها، وهي تبحرُ نحو فصلٍ تأكل فيه البراري من عشب إبطيها، ثم تعودُ، وقد نقصَ من الموتِ عمرٌ طويلٌ، خلاله تفيضُ الحياة، عائدة إلى وكرها.

من جَمالها دع الجمال يتعلمُ كيف يبدو صاعقا:

إن مرّتْ فليقتبس، من بصيص ظلها، فكرة أن يكون فريدا، مثلما تبتكر الشجرةُ شكلَ أغصانها، ومثلما يتسلّق التلُ نفسَه، لتناول الفطورَ، فوق، مع الرعاة . .

من طولها
اصنعُ قامة الشاعر، إن أرادَ أن يكون باسلا، كالرمح.

من حياكة ساقيها علّم الكتابة كي تكون أنيقة، يحجُّ إليها الابتكار كل لحظة.

وحينما تريد القصيدةُ أن تكون محفوفة بزائرين قادمين، من أجلها، من مدنٍ بعيدةٍ، فلتكن مثل حبيبتي: عازمة على السير حافية القدمين فوق جمر أشواقها، مثل قبلة تشتهي كلُ امرأة أن ترتدي شفتيها، وهي في طريقها إلى الحب، من موعد إلى موعد، في أزقة منسية، أو في غرف رخيصة.

يا شِعر..

اجمع من ضفائر شعرها قليلا، في قارورة نجمة، وارمِ بها إلى الليل، ليعرف الليلُ كم من ليل شعر حبيبتي حاجته، ليصبح ليلا خاليا من الأشباح التي تنقل الظلام، وتنشره غيمة بعد غيمة، في سماء تعاني من جفاء النجوم، فيما النيازكُ تهطلُ بغزارة لإشعال الحريق في قلب كل ملاك يرضعُ، من ثدي حبيبتي، حليبَ الأمان بعد أن تم طرده، من الجنة، من دون فطام.

أيها الأزرق لشدة السماء التي حبكتَ بها سلّتكَ:
إحفظ ثديين لحبيبتي سافرا لبعض الحليب، لكنها عادت من دونهما، لأنها لم تجد الفجرَ في مكانه. تركتهما لوحديهما هناك يبحثان عن حلمة أي نبع، وعادت بكل ما تحمل كفيها من عصارة دمع، ناثرة، طوال الطريق، قُبلا تحفظُ الغزلان رائحتها، فتتبعها بين البراري حتى نهاية النهاية، حيث الصرخة، بعد الصرخة، تأتي راكضة لسماع أصدائها..

لملمْ،
يا شِعر،
ترنيمة الحبيبة، لتعمَّ الكائنات مساءا.

إجمعْ بين الصخرة والصرخة، ودعْ حبيبتي تتحول بسحركَ إلى طير، ينقل المنامات من سرير إلى سرير:

دعها تضع تحت وسادة كل نائم حلما يأنس إليه المكان، فيحلم بامرأة، يصنع الشعرُ من جدول حنانها بيتا، يعيشُ فيه العصفور مع النسر، و لا تفرّق فيه الصرخة بين نفسها وبين الصخرة، حين تقفان، وجها لوجه، أمام مرآة روحيهما.

يا حبيبتي، بعد كل عناق، لن أغسل شفاهي، لئلا تنزلق قبلتكِ، لكنني بعود ثقاب تتركينه قرب سجائري، أشعلُ ظلام الظلام في الكون، سائرا بين نجمتين: قبلتكِ وعود الثقاب، الذي تتركينه عادة، عندما يخلف القمرُ وعده، فلا يشرق إلا وأنتِ عائدة بقوت من الحطب، هو جسدكِ، تُشعلينه تحت شرشف الخيال، فيهطل القمرُ بكامله على السرير، وتنزلق القبلة من مكانها، لتحل محلها قبلة أخرى: تكبر حتى تصيرَ زورقا، نبحرُ فيه تحت ضباب لذة لم يرسم خرائطها أحدٌ، لنعرف أين أماكن وجودها، فيما يصير عودُ الثقاب مثل عمود كهرباء، نقرأ تحته، كما في الطفولة، كم المسافة بين نهديكِ وأصابعي.

ساعتها يصبح الكون كائنا مثلنا، نفركُ عن روحه كآبة مجهولة جاءت مع الريح، تاركة ورقة هنا أو هناك، لم يحلّ طلاسمها سوى الشعر، لكنه لا يقول ذلك إلا لمن هو نفسه لا يقول..

أيها الشِعر

لا مسافة بين نهديها و أصابعي إلا أنتَ، عندما يتوقف نبضُكَ عن المرور أمام إشارات قلبها، أو يكفَّ حضورك أن يظل ملعونا، فلا ينثر ريشه في ممرات رأسها المكتظ بهواجس النوم في حنجرة الغصة، التي ابتلعتْ حتى الغصة من شدة عمقها.

اختصرنا يا شعر بكثافة معناك:
إننا كلمة تجهل معناها من دونك.
كيف يمكن أن تكون هناك مسافة داخل المسافة؟
وما السر يا شِعر إن غبتُ أو غابت،
ومَن اخترع الغياب؟!

أمشي ضائعا في جمالكِ

كان أبوكِ ناقدا قديما كالظلام، فلم يكتشف كيف أشعلتُ قشَّ جمالكِ وهرّبتكِ، من بين جحيم الأقفاص، أغنية بعد أغنية، حتى أسكنتكِ جنة هذه الأغنية، رغم أنه كثيرا ما شمَّ ظلام القضبان، وتفقّدَ بشَرة أحلامكِ، باحثا عن نأمة التمرد، لأن نسبه ينحدرُ من فخامة التقاليد والمناهج، فيما كنتُ لقيطا، كقصيدة نثر: عروقي حفرتها آثارُ السياط على جلدكِ، ودمي رغبة غامضة تجمع عصورَ حنانكِ بشفرة واحدة.

لم أقصد أن احبكِ، لكن قلبي اتخذ شكلَ مَن يحبكِ، فصرتُ مَلاكا قادرا على أن يبتكرَ، من خلالكِ، المعجزةُ:

فتقتُ العاصفةُ لأستخلصَ لروحكِ معادن الهيجان، وحرارة السقوط الى أعلى.

أجلستُ الريحَ على أقدامكِ، وأمرت النسمة أن تبني عرشها في رئتيكِ.

ارتفعتُ بساقيكِ عاليا، كراية الحرية، وعلى بطنكِ تمددتُ، كميدان من برادة العشب والنحاس.

غسلتُ روحكِ بزيت الشِعر.

مشّطتُ شعركِ بهواجس الممسوس بالمشي تحت المطر، خضّبتُ دمكِ بالعيد، وأطعمتُ قلبكِ كِسرة من شطوط الطفولة.

بضمةٍ يائسة كنستُ الفراغَ المتراكم على شفتيكِ، وكسرتُ عتمة الأيام ببياض ابطيكِ.

أعرفُ انني أركبُ طائرة ورقية، لكن الخيال مجرة، وروحي نيزك صغير.

تآكلتُ في طريقي إليك، ولمّا وصلتُ كنتُ لا أحد، فالمرايا التي وقفتُ أمامها تلعثمتْ، ولم تنبس ببنت شفة، وأنتِ فرحٌ أخضر ينحدرُ من حكمة النبات، يلوّح لي بالمسرّة، غير أن أبيكِ كان ملكا، وكنتُ هاربا من حروبه إلى جهتي من النسيان: أمشي بصمتٍ على حبل الضجيج، وبرهاني قلة الحيلة.

لم أقصد أن احبكِ عندما جلستُ، تحت سقف اضطرابي، منتظرا أن أختفي في باطن الأسماك التي تسبح في نهر نومكِ، لأن قاربي هو جسدي، فانوسي هو الخوف، ودليلي هو التردد، لكنكِ اتخذتِ شكل مَن مسّها الحبُ على الأرصفة، مزقها توقُ البحث عن مصطبة في المنفى، وتعتعها شغفُ الزفاف إلى شاعرٍ من الأزقة، فعرفتُ أن مصيري يترنحُ سكرانا بين حانات خواطركِ، وتلال أسراركِ، ففي دمكِ رأيتُ رغبة العاشقات في التشرد تحت شمس من الدخان، فوقعتُ في صحن غرامكِ، وانكسرَ الصحنُ ولم ينكسر غرامكِ، لأن لروحكِ عادات لكن من شجر، لأنكِ تبتكرين ريشَ الرحمة، وعندما تحلقين فوقاً تجتمع الملائكة على هديل اسمكِ، ليولد الأمان.

أنتِ مَن أحببتُ قبل أن يعثر الإنسان على قلبه.

أنتِ مَن غنيّتُكِ وحيدا بحنجرة الجميع.
أنتِ عدة شموع في شعاع واحد.
أنت سفينة في عدة طوفانات.
أنتِ حزمة مفاتيح في معرفة واحدة.
أنتِ سهمُ الرحمة الذي يذبح القلب،
ويرسمه ملاكا في راية الشيطان.
أنتِ لا نهائية الغفران في الخطيئة.
أنتِ فيضانٌ من الشكِ في قناعة أكيدة.
أنتِ انشطارُ المعنى، ومفترقُ طرق أمام مسافر واحد.

رأيتُ حضاراتهم، من خلال عينيكِ، تفرضُ حصارها، دمعة بعد دمعة، كما أن المصابيح، في الطرق، كانت تزخ مطرا من الأصوات، حتى فقدتُ الصحو من شدة الصحو، فقد كهربني سلكُ العشق وارتجفتُ، كأنني قميصُ منشور تفرُّ العصافيرُ المرسومة عليه. كأن العالم كان حبل غسيل، فخفتُ ورفرفتُ بين سيقانكِ، لكن الناقد شمَّ رائحة الخلاص، فاستعار لحية البلاغي وجبّة المتكلم، وأقفلَ المطرَ على مهرجان الوردة، فالقصيدة تقول ولا تقول، ونهرُ الشِعر اجتاح سدودا من الجوائز، ليسبح في تياره الصعاليكُ والهراطقة، كما أن الملك أصدر مرسومه باغتيالنا علنا، إذ لم يعد ثمة مَن يغني له القتل في الشوارع.

كان عليَ أن اهرّبكِ من الوضوح الى الغموض، ومن الشعارات إلى لجّة الصمتِ، فكثافة الحب هي في ما لا يُقال. هكذا غنيّتُكِ في قشعريرة الخنادق: تحت القصف، وفي حشرجة البرق، إذ ينحتُ في السماء شكلَ

القيامة. كانت الأغنية محكمة جدا، والكلمات أقفال، فركضتُ بكِ نحوك، تطاردنا عصورٌ من الطائرات والقنابل، ثم تتعبين وتخذلني القصيدةُ، فأحرسكِ من الحرس: أفيضُ عليكِ سيلا من الدموع والتعب. أتعرّقُ فتسيلين من مسامي. تخافين فأرتجفُ، وتعرقين فأهجر نفسي، وأسيلُ من مساميكِ:

ألقيتُ عليكِ من الفصول كل ربيع،
ومن الربيع خلاصة التبرعم،
ومن التبرعم
خلاصة الرحيق.

احبكِ
وأعني أن الشِعرَ يعمّني عندما احبكِ.

احبكِ
وأعني أن عمري يزحف إلى الهلاكِ على ركبتيه عندما لا احبكِ.

احبكِ
وأعني أنكِ صحو الصخور على الصباح،
إذ يشرق بالشمس على بحارة تائهين.

احبكِ
وأعني أنكِ ملحُ الأساطير، وامرأة السلام التي من أجلها تنشبُ الحروب.

كان أبوكِ صيادا، فصرتُ عبده الذي اصطادني: أقرأُ كتبَ الحنين،

وأعيشُ لاجئا سياسيا في بطن سمكة، مثل يونس. كان جنوني على أشدّه عندما انتميتُ إلى قلّة من الشعراء تقود قطيعها بعصا التقهقر. كان الغناءُ يغزلني خيطا من القلق، وهناك حبلٌ من الفئران يقرضُ نيران وساوسي، لأن أحلامي وُلدتْ محفوفة بالمخاطر، منها: إنني ابتكرتكِ وأضعتكِ، ومنها: أنني أضعتكِ وابتكرتكِ، ثم أضعتُكِ، ومنها: سأبتكركِ واضيعكِ، إلى أن أبتكرك أخيرا على هيئة لم يرها أحدٌ، ثم اضيعكِ.

لم أقصد أن أحبكِ، لكنكِ تجليتِ كتابا، فقرأتكِ على العشاق في دفتر العالم، ثم مشيتُ خلفكِ، لأنني رأيتُكِ على الهيئة التي لن اضيعكِ فيها، غير أني سأضيع فيكِ، فيما أبوك يرقص مصعوقا، كمن اكتشفَ أن الشِعرَ يجلسُ على كرسيه في قصيدة نثر مجنونة كمثلكِ. زوّجني بكِ، قبل أن يبتكروا الزواج، فصرتِ اما تحملني جنينا في بطنها، وأحملها في ظهري نطفةٍ، ستصيركِ وأنتِ تسرحين بقطيع الزمان في جنة هذه الأغنية، فأولدُ، وأمشي ضائعا في جمالكِ.

جغرافيا اخرى للتحليق . .

كما لو كنتُ أنتظرُكِ منذ حواء، وقد طردتني الأشواقُ من الجنة: لم تهبطي معي فانتظرتُ، في العراء، أن يجيء بكِ الملاكُ، ولمّا لم يحصل ذلك رضيتُ بالشيطان بديلا.

أيتها المكتوبة على عرش الغبطة،
المرسومة على كثبان البرق،
المخلوقة في رحم الشِعر،
المولودة، كالندى، على عشب الخيال،
والمتوارية في منازل الكتابة.

انتظرتُكِ تحت شجرة، حتى صارت الشجرةُ غابة، تناسلتِ الوحشةُ داخلها، وحشا بعد آخر، حتى جاء حطّابٌ، وغرسَ فأسه على أسمائكِ التي كتبتُ طوال انتظاري، فتحوّلَ شغفي فيكِ الى حطبٍ، حوله يتجمع الذين شرّدتهم الأشواقُ:

تنغرسُ حروفُكِ، جمرة بعد جمرة، في مواقد ذاكراتهم، كأنكِ حاضرة أبدا. تفكين أزرار قمصان الحسرات التي تعصفُ بأرواحهم. تلبثين، هناك، في قلبها، وتحت كل وسادة تتركين صورة جاد بها دفءُ أسمائكِ

التي ارددها ساعة الجفاف، لتسطع ينابيعُ حلمتيكِ في المخيّلة، فأعود شاعرا مكتظا بالصمتِ.

أصيرُ مهجورا
يتراكمُ على قصائدي الغبارُ
إن لم تمر عليها عرباتُ خواطركِ،
وهي تنقل الصباحَ،
بعد كل ليل،
من نهارٍ إلى آخر.

أيتها المخلوقة من أجل أن أسيرَ في الناي، وتتسرّبُ من ثقوبه أيامي، نغمة بعد نغمة، إلى أن تتم الأبديةُ لحنها، ثم لا يجدني أحدٌ لكثرة ما مرّ نهرُ غيابكِ بين ضفافي.

كم قاومتُ أن أحبكِ كي أخدع الربَ، فتهبطين: كان موعدنا الجمعة. ومرَّ السبتُ، والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم انتهى الخميس، ولم يمر يوم الجمعة.

كثيرا شممتُكِ في الشرق، مع السِحر، فركضتُ وفي معطف هواجسي حفنةٌ من عطور كثيرة، اقتبستُها من كل امرأة توهمتُها أنتِ، لكنني، في الطريق، اكتشفتُ ان النساء يشبهنكِ، ولا تشبهين واحدة، فألغيتُ الجهات ومشيتُ على لاهدى، كما لو كنتُ قد أدركتُ أنكِ هناك في المطلق، خلفَ الفصول والتقاويم، بانتظاري.

أيتها الممطرة دون أن يمسّكِ موسمٌ،

أو
أن تمرَّ بكِ السنةُ.
أيتها العيد في كل أغنية مشمسة.

تعبّدتُكِ في الكهوفِ، وعلى جدرانها رسمتُكِ، متقيا سطوع شمس النسيان على هذياني، وأنا أنحتُكِ وفق إيقاعه الذي لا أعرفُ من أي طبل كان ينهض، راكضا نحو رقصتي الطويلة.

أنحتُكِ في قيعان غلياني شاهقة فوق كل علو، وتصعقني الدهشةُ عندما، في آخر لمسة، تمدين لسانكِ ساخرة:
«لستُ أنا»
ثم تذوبين عائدة إلى الطين الذي نحتُّكِ منه، فأقعي وحيدا يائسا، بعد كل محاولة، حتى اكتملتِ، ذات جنون، فقلتِ: «هيتَ لكَ» وكشفتِ أنحائكِ، هضبة بعد هضبة، لكن الإنسان، بآلاته الجهنمية، نقلكِ منحوتة إلى متحفه، تاركا ممرات جمجمتي خالية من حضوركِ الساحر.

أذكرُ من فمكِ عيد ميلاده، مع أول قبلة.
ومن شفتيكِ أذكرُ أن خطاً من الأفق قد تكوّن بينهما، من خلاله مرّتِ الكلمة الوحيدة: الكلمة الحبلى، التي من رحمها تولد الكائنات: احبك..

أذكرُ من رموشكِ أنها رسمتْ حدودَ لا نهائيتي، وأن أصابعكِ شكّلتْ تقاسيم وجهي وأعضائي، فيما كنتُ نائما أحلمُ أنكِ تقودين المسرّة: أرى إليك منقادة إلى التبخر تحت حرارة موجتي:
أنتِ الصاعقة مرة، وأنا الشجرة،
وبالعكس مرات.

ألمُّ عُريكِ من تفاصيل تلعثمي بحضور الجداول، عندما النسيمُ يرسم طيّة من بدنكِ فوق سطحها، لكنك لا تلبثين مكانكِ ريثما أفصلُ القطرات، التي مسّها تجليكِ، عن المياه، فما من عزاء، ساعتها، إلا أن أتبع النسيم من جدولٍ إلى جدولٍ، أو أن أرتدي الجداول.

هناك ممرٌ بين نهديكِ.

هناك

ممرٌ كان دافئا بين نهديكِ،

مشيتُ فيه وتهتُ،

لأنني رأيتُ الملاكَ والشيطان عاطلين عن العمل، مثل عقربي ساعة، تاركين الوقت، هو الآخر، لا يفرّق بين بداية الممر أو نهايته، حتى أنني، في الأخير، ناديتُكِ:

أيتها الكسولة في لمّ الغيوم، فهي حاجبيك.

أيتها المتباطئة عن الموعد، فهو اقترانكِ بالعاصفة، وحفل زفافكِ من الغسق،

فامتصني عرقُ بدنكِ، وغصتُ عميقا في آبار مسامه، حتى وصلتُ الى ما لا اسميه، لأنه كان منتهى المنتهى.

أذكرُ أنكِ لم تذهبي للمدرسة:

في الجنة لا يتعلم المرءُ إلا عبر الحدس،

من غير معلّم،

لكنكِ طلبتِ أن اكون المعلّم، فكنتِ الدرس.

لم يكن ثمة ما أعرفه سوى أن أدلكِ عليكِ:

أكشفكِ لكِ،

فوجدتكِ تعرفين المسالكَ،

وتحفظين، عن ظهر قلب، مسالك الذنوب،

ذنبا بعد ذنب، حتى اكتشفنا أننا نستطيع أن نبتكرَ الجحيم، مثلما بإمكاننا أن نبتكرَ جنة محفوفة بالمخاطر:

الخطرُ ان نكون خالقين أجمل من أن نكون ضحايا.

هكذا اخترعنا الحبَ، وسحنا في مجاهل الجمال: قصيدة تكتب نفسها، وتزدري النقّاد لأنهم يحسبون الريشة طائرة.

أجهلُ ما الذي طار من أعضائنا ساعة ارتكابنا الخطيئة النبيلة: ربما كان العقل كله.

أجهلُ ما الذي حطّ في جسدينا ساعة التحامنا:
ربما كان القلب كله.

لكنكِ تعرفين أننا لم نرتكب إلا ما يُنيرُ دواخلنا، وصولا الى الشعلة، فلنكن ساقطَين بعد ذلك، فالأقاصي صارت قريبة.

إن إشراقة الجسدين على بعضيهما لا تليق بها الأغطية:
دعينا، في العراء، نسطعُ كشمسٍ حنونة، ودعي التاريخ يشربُ قهوته مع القائد المنتصر.

ما أروع الظمأ إذا كان بين جسدين يرتشفان القهوة من بعضيهما، على سرير الهزيمة.

أذكرُ أن براري ساقيكِ
عندما اغتسلتْ بأمطار ساقيَّ،
وانطلقا معا في اللا أثر،
تحوّلتُ، أنا المعلّم، إلى تلميذ.

قلتِ: مادام التاريخ زائفا، حلّقْ يا فتاي.
ابتكرْ، من أجل الطيران في الكتابة، ريشا من النثر:

يا رجلي،
يا صيّاد نسوري،
حلّقْ بعيدا، حلّق وحلّق بعيدا..
إن التحليق هنا مدوزنٌ بالأوامر.

وحلّقتُ بعيدا، من سماء الى سماء، حتى رأيتُ الدلالة: عندما أشرقَ وجهكِ / القمر على كوكبٍ مغبرٍ حزين اسمه الأرض، فانتظرتُكِ فيه، كما جاء في الكتب المقدسة:

كان موعدنا الجمعة.
ومرَّ السبتُ
ومن بعده الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء،
حتى انتهى الخميس، ولم يمر يوم الجمعة.

آهـ...
ولا مرة، في حياتي، مرّ يوم الجمعة..

أغنية من قعر زجاجة

أطفو مثل قنينةٍ زجاجيةٍ فوق مياه التاريخ.

في جوفي آهاتٌ بشرية وضحكاتٌ:
تقودني أحلامي من بحرٍ إلى آخر، لكن لمّا انقرضَ الصيادُ الذي يرنو الى الشاطيء: ينتظرُ ظهورَ الحوريات بقلبٍ أخضرَ القلب، شربتُ الزجاجة.

أعرفُ أني تماهيتُ في الطواف على الهوامش، غير أنها الرغبةُ في أن أستخلصَ معناي، من بين شِدّة العصور.

كانت خارطةُ الرحلة هي الرحلة، حتى رأيتُ أن الزجاجة ليست هي الزجاجة، وأنا نفسي أضحيتُ كائنا خرافيا: ينحدرُ أصلي من الزجاجة واللازجاجة معا، فأنا أفتقدُ إلى الصلابة الداخلية، ممّا يعرّضني للانتهاك، لذلك أبقيتني بعيدا عن التداول، فما يحصلُ في الخارج يفتقدُ إلى الحرارة.
آهـ...
لقد هربت الشاعريةُ، وشاخت الصبايا الجميلات في القصائد.

كان قلبي يضعُ مركز ثقله في شهرزاد، وكانت شهرزاد نائمة في التفاحة.

كان العالمُ أكبرَ من التفاحة قليلا، وكانت شهرزاد تخدعُ شهريار،

وتقطفُ تفاحة من بستان خيالها، فآخذ قضمة من خدها، و تأخذُ قضمتها من التفاحة، ونندهشُ من هذه الصورة الشعرية الفاتنة.

كان ممكنا أن نمدَّ خيط الخيال، فننتقل إلى السكن في التفاحة.

كان..

وحين سمعتُ الكذبة المستحيلة: أن القمرَ حفنةُ أحجار، وليس زجاجة على هيئة مصباح، هجرتُ العالمَ، ولجأتُ إلى السَحرة في ألف ليلة وليلة، فعوّذوني بالشِعر: شقّوا قلبي، وزرعوا فيه التفاحة، ثم خيّروني بين أن أعصرَ خمرا أو أشربه، فاخترتُ أن أسكنَ في قعر زجاجة: أتنقلُ بين العبيد في الأزقة، من غلام إلى جارية، ومن صعلوك إلى ملك: أملكُ الحضارات ولا تملكني، أصوغُ خرافتي المصابة بالغناء والترحال: أحتفظُ بها في الزجاجة، أشربُها، ثم أنقلُ النورَ الذي يقدحُ في داخلي كالشرارة، إلى زجاجة اخرى: أختمُها بعضّةٍ قويةٍ من القلب، لكن حرّيتي كانت شاسعة جدا، ومنفاي أعمق من الزجاجة، مما يعرضها للانفجار، فأنحني ساعتها باكيا لأجمعني من بين الشظايا، قبل أن تُداس بأحذية المؤرخين، فيما شهرزاد تفاحة ذابلة تغني على مائدة شهريار، وهي تشيرُ إليَّ في غيابة القعر:

كانت للزجاجة حياة ساحرة، مثله.
كان لها كيان متألق، مثله،
كانت لها رحلات، مثله.
وخذلانات، مثله..
غير أنه كان يتوقُ إلى الشجاعة لأن ينفجر بحزنه، على الحائط، مثلها.

وكنتُ . .

كنتُ أرضعُ منها حليبا كامل الإشراق، يحوّلني إلى ربان وإلى سفينة، فأقودُ البحرَ حسب طقس الغيوم في ممرات جمجمتي، رغم أني أمطرُ بدون مناسبة، وأحيانا أهطلُ بدون استئذان: هكذا هو الشِعر، وهو ما يحصل حتى مع السَحرة في ألف ليلة وليلة، إلا أن بعض الصبيان يتعاملون مع شطحاتي بعقلية المؤامرة: ينددون بأخلاقي وبسيرتي، وبعضهم يقول متعاطفا: «إن الحمرة كانت مغشوشة، أصلا» ذلك لأنهم لا ينتمون لعالم الكتابة من الخلف: لا خرافة مشعّة في الداخل، لا هيام بامرأة، ولا قدرة لهم على الإقامة في الفراغ المريع، البارد، والمدمّر، في جوف زجاجة . .

كيف خسرتَ الوردة، كيف ربحتِ العاشق؟!

ما زحفتَ، على الجمر، نحو يديكَ.
ما تجوّلتَ في مجاهل الروح، ولم تخرَّ صعقا أمام شحوبها الفاتن.
ما مشيتَ تحت رذاذ خواطر الإفلاس، لتناجيكَ أغنية.

ما تسربلتَ بثوب العراء.
ما طاردتَ الأشباح من حجرة الكلمات إلى صالة المعنى.
ما قطعتَ الليلَ بحثا عن الظلام.
ما نشرتَ على سياج الغيمة ثيابَ المطر.
ما فصّلتَ من هواجسكَ شكلَ الروح،
وما حفرتَ قيعانكَ نحو صميم العناصر.

طلبتَ رمحاً، فأعطيتكَ غصناً.
طلبتَ غصنا، فأعطيتكَ وردة.
طلبتَ وردة، فأعطيتكَ عطرا.
طلبتَ عطرا، فأعطيتكَ نفسي،
لكنكَ أكلتَ انسانكَ الداخلي
فصلّيتُ من أجل أن لا تأكل المرأة:

صلّيتُ أن لا تأكلها، عندما يضربكَ الجوعُ ثانية.

هي امرأةٌ مغسولة بتنهدات الدرّ، وبحسرات الطفولة: منحوتة كتمثال، في باب كل قصيدة، ومرسومة على الجهة الخامسة.

هي
أشدُّ نصاعة ممّا في المياه من مرجان، وأكثر تحليقا، في سماء السهاد، من أي كوكب.

متجاوزا طبيعتكَ حاولتَ، وراءها، أن تحلّق:
لا الشمس، لا الريح، لا المطر، لا..
كان خيطُ التجاوز قصيرا، فما حلّقتَ أبعد.

تخلّفتَ عن القطاف، فليس لكَ وردة:
لا وردة، ولا أنيس،
ومن القطاف لكَ السلة الخالية، فلا تدّعي أنكَ كنتَ البحرَ، ولن أدعي أنني كنتُ الموجة.

لمّا كنتَ البحرَ خرجتُ، كما دخلتُ، يابسا، ولمّا جاورتَ الضوءَ كنتُ أنا الشمعةُ.

ما سحبتَ خيطَ الخيال، لتجرَّ إليكَ غيمة.

ما ضربتَ بقدميكَ كطفل، لتنفجرَ من مجرّة الشِعر ألفَ امرأة، في كل امرأةٍ امرأةٌ اخرى، ولم تزهد بكل ذلك من أجل امرأة لم تُخلق بعد، لأنها في خيال الخيال: مرسومة على الهواء، في باب كل عاصفة.

منحوتة وسط ساحة الريح، يحجُّ اليها الشِعرُ ساعة يجد نفسه وحيدا.

اخرجْ.
اخرجْ من هذه القصيدة.
إنكَ
تدوسُ أرضا يتلعثم من بكارة أرضها الملاكُ.

اخرجْ
من هذه القصيدة، ودعني وحيدا، أكتبُ اسمي، على حائط أحزانها، بحرارة مَن يقف أمام كتيبة إعدام، و لا يلفتُ انتباهه للحياة إلا مرورها السينمائي:

امرأةٌ
تسيرُ نحو لقائي، على شريط الفراق، وأسلاككَ، في قلبها، تعيقها أن تلوّح ولو من بعيد.

اخرجْ من الشريط، اخرجْ:
دعنا نؤدي اللقطة الأخيرة، قبل أن تشتعل الأضواء، ويخرج الجمهور من الصالة:

إنكِ تربكين الجمرةَ في عزّ عراكها مع البرد.

آهـ...
ما كنتَ ذابلا لتكتبَ باخضرار النبات.
ما تسللتَ إلى مسام العشب، وما وقعتَ في صحن امرأة قادمة من أقاصي الينابيع حاملة، في دمائها، نصاعة الفجر وقلق العناصر:
منحوتة كتمثال، في مطلع كل قلب.

مرسومة مثل طوابع البريد، على رسائل الصبايا، وهن يدخلن حافيات الى ساحة الجمرة.

ما كنتَ عاشقا لتأسرَ بعينيكَ فراشة.
ما غرقتَ في حب امرأة رأيتَها في منام:
منحوتة من رحيق الورد، كتمثال ينحني لابتسامته كلُ عاشق.
ما طاردتَها من منام إلى منام، ومن بلاد إلى بلاد.

ما طُعنتَ بزهرة، ولا شممتَ عطرَ الخنجر، ولم تنزلق من على سفوح الغصة جارفا، في انحدارِكَ، غبار قبلاتها من على صفحة الصخور.

ما كنتَ صادقا لتكتبَ بخلاصة الدمع، أو وجازة البلور.
ما جرحتَ البرقَ، وهو يمرقُ بين غيمتين: الورقة والكتابة.
ما تقاسمتَ كِسرة الجنون، مع الشعراء، في المقاهي.
ما نسيتَ رأسكَ المخمور على طاولات الحانات.
ما بحثتَ عن العثور، وما رهنتَ نهركَ من اجل موجة.

لم ترسم، على زجاج النوافذ، قلبا تخترقه نبلة.
ولم تجرؤ، لو رسمتَ، أن تكون النبلة.

ما كنتَ شاعرا لتبتكرَ اعجوبة القصيدة،
ولا صادقا، لتمشي على الماء.

اخرجْ من حياتي.
اخرجْ:
إنكَ تعبدُ الكتابة، وأنا أعبدُ ما لا يُكتبُ وما لا يُقال.

السلامُ عليكَ أيها الشِعرُ:
لقد أعطيتني شمسكَ في يميني،
إلا أنكَ قطعتَ شمالي.
السلامُ على مودة من رماد، ومن حريق.
السلامُ عليها أيضا.
على إنسانها الداخلي،
يوم تبعثه هذه القصيدةُ من جديد.

أطوفُ حولكِ، كما تطوفُ ريشة حول عاصفة..

على قلق كأن الريح تحتي..

المتنبي

كنتُ صغيرا على الحب، وكنتِ أكبر.
كنتِ الأكبر من ساحة الميدان[1]،
والأكثر إشراقا من الكتب.

كنتِ الأكبر من الحب، والغريبة عن الوقت.
غريبة كنتِ كفراشة في حقل ألغام.
غريبة كيأس يخصّبُ جسدَ التفاؤل.
وأليفة كنتِ،
كفجر يرشُّ نوافذه على زجاج الصباح.

وجميلة كنتِ.

جميلة، كامرأة تتقدمُ جمالها.
جميلة، كغرفة تطلق العنان لحرية جدرانها.

---

(١) ساحة الميدان: أشهر ساحات بغداد وأعرقها، وهي قريبة من شارع الكتب / المتنبي.

جميلة، كقطرة يغوصُ من أجلها الماءُ، ليعرف أين وقع قلبه.

وصرتُ أجمل مني، حتى أني لم أعرفني، عندما أحببتكِ.

عندما أحببتكِ صرتُ حنانا عاليا، كبرج.
عندما أحببتكِ دخلتُ مغارة نفسي، وشاهدتُ الجوهرَ لكنني لم أحتمل أن أكون نبيا، فسكرتُ بجمالكِ.

لم أعرف أن مَن يسكرُ بجمالكِ يحملُ على ظهره العالمَ.

لم أخبر أحدا،
لكنهم عرفوا عندما خلعتُ عن كتفيَّ الملاكين، وطفتُ حولكِ، كما تطوفُ ريشة حول عاصفة، حتى كبرتُ حين طوقتني الرغبة.

طوّقتني الرعشة، وعمّني فجرُها، فانفجرتُ كشعاع، وفضتُ كدخان.
كبرتُ كدخان، فطرتُ كفراشة في حقل ألغام.

صرتُ شجاعا، كقلب ينتقي طعنته.
صرتُ أخترقُ كلّ اطلاقة،
لأنكِ تدفقتِ كالشرارة، فأشعلتِ النار في قش القبيلة.
وضعتِ جسدكِ في الروح، وكسوتِ روحكِ بالجسد.

أعلنتِ أنكِ امرأة، وأنكِ أكثر، فأنتِ امرأة، ولم يؤمن بكِ أحدٌ، فقتلوكِ وما قتلوكِ، فقد شُبّه لهم، وتركوني أطوفُ حول غيابكِ.

تركوني أذهبُ إلى الذَهَب، وأحرسُ لمعانكِ.

ما قتلوكِ، فقد قتلوا الفكرة، لأنني واصلتُ الطواف، حتى دخلتُ الفكرة

وانفجرتُ وفجّرتُها، فعدتِ الأكبر من الحب ومن القتل.

صرتِ الشِعر.

صرتِ الصعاليك والحانات.

صرتِ معصية تُرتكبُ من أجل الطهر، ولتفيض من جسدها غمامة النبوءة.

صرتِ الفكرةَ التي تقتلُ الفكرةَ، ثم تتجاوزها إلى فكرة أخرى، حتى خلقتِ اللحظة التي تنفصل عن الزمن: تلك التي يتآخى فيها اليأس مع التفاول، ويتحولُ فيها الطينُ إلى إنسان، وبالعكس.

قتلتِ الفكرة، فعدتِ امرأة أترنّحُ سكرانا من فرط جمالها.

وها هوذا السكرُ

آهـ. . .

السكرُ العاصفُ، سُكركِ، يفتح أمامي طرقا لم تُخلق، فأمشيها معكِ.

أمشي وأنت إلى جانبي، لكنني أراكِ في الأمام.

أصيح: توقفي،

فتصيحين: أنا خلفكَ.

هوذا سُكرُ جمالكِ، آه. . السكرُ العاصف يغمرُ دجلة، فيرتلُ آية زرقتكِ كلما خطرتْ في خيالي موجة.

السكرُ، سُكري العاصف، يأخذني إلى كتبٍ سرقناها معا، ثم سرقتكِ منها.

اشاهدني كثيرا معكِ. نصعدُ زورقا ورقيا، ثم نغرقُ، فتنقذنا قبلة.

أصعدُ معكِ سلالم مخيلتي، وهناك تبتكرين مخيلة اخرى لأنكِ الأكبر من الحب، والأكثر من الخيال:

أنتِ الجميلة، كامرأة تتقدم جمالها.

أنتِ الجميلة، كغرفة تطلقُ العنان لحرية جدرانها.

أنتِ الجميلة، كقطرة يغوصُ من أجلها الماءُ، ليعرف أين وقع قلبه.

وأنا السُكرُ العاصف، سُكري، يقود خطواتي، دائما، إلى حيث كنتِ تنتظرين: ادخنُ سجائري عند أقدام تمثال المتنبي، فيخرجُ الدخان من منخريه، ومن جيوبه تطيرُ أحلام، قصائد، وفراشات كنا قد حلمنا أن نكتبها، فينكشط الطلاء، وينكشفُ الهيكلُ العظمي لعالمنا الهش، فاغني: «على قلقٍ كأن الريح تحتي..» إذ سرعان ما ستأتي القبيلة، ثانية، لتأخذكِ إلى المسلخ، فيما يواصلُ سُكرُ جمالكِ، آه السكرُ العاصف يواصلُ لعبته معي: يجرفني بأمواجه العاتية إلى الساحات والأزقة، أو يجرجرني من ياقتي إلى مصطبة على الشاطئ، حيث لا يزال الشيطان جالسا عليها، بانتظار أن تكوني ثالثتنا.

الحب حسب التقويم البغدادي

«إن على الجمال أن يكون
متشنجا، أو لا يكون. .»

بريتون

لم يتغلب جمالُ هذه المرأة على جمالكِ، رغم أنها أكثر جمالا منكِ، وهو ما يربكني عندما تضبطني جالسا في داخلكِ: أتلوى من اليأس، أو متشعبا في مزاجكِ الذي يتدبلُ، حسب طقس عائلة مولعة بنشركِ على حبل الزواج، كلما خطرَ في خيالها شبحٌ تعتقدُ أنه الملاكُ المخلص، الذي على يديه ستكونين اما صالحة: تنجبُ أولادا يذهبون إلى الحروب، أو يتشردون في المنافي، ثم لا تجد مَن تفيض بحنانها عليه سوى الكراسي الفارغة: تنظفينها، بنظراتكِ، من الغبار، وأنتِ جالسة في زاوية المطبخ.

آهـ. . .

تضبطني هذه المرأةُ الجميلة متلبسا بالخيانة العظمى: أتلصلصُ عليكِ من ثقوب تصنعها مخيلتي بمهارة، فأرى حسراتي تحومُ حول رأسكِ، كطيور مهاجرة تبحثُ، وسط المياه، عن جزيرة ما. .

ألمحُكِ مثل دخان يتبخرُ من مخيلة الخائبين في الأزقة، ولا أحد بإمكانه

أن يحجزكِ: جسدكِ دخانٌ عبثا تحاول الجدران أن تمسكه: أن تمنعه من الطيران في كل اتجاه، ليقع في مصيدة الحب، حسب التوقيت البغدادي:

تتسللين عبر الأسلاك الشائكة، تخترقين المفخخات، الحواجز، ومنع التجوال: تجلسين إلى جواري فوق سياج العالم، ونضحكُ بمرارة، لأن الهاوية تلوّح لنا، من بين أقدامنا، بشغف جائع ينتظرُ رغيفا من الخبز، منذ أول مجاعة.

تنتظرنا هاوية يجب أن ننتظر قرونا طويلة لترتد من قعرها أصداءُ صرختنا، أثناء ذلك تشنقني، هذه المرأة الجميلة، بحبل عروضها السخية: ستطبع كلّ قصائدي المكتوبة بحبر دموعكِ، إنْ أنا قلتُ لها الكلمة التي تنتظرُ،
لكن..
ماذا تريد هذه المرأة الفاتنة من قصائدي التي تحبكِ؟!

إنني، إضافة إلى كذبي الخارق عليكِ، لا أتقن الصدق إلا معكِ: أدعي أنني بخير في كل مرة، رغم أنني أفتح نافذتي فأجدُ الصباحَ جاهزا لأخذي إلى المخفر، حيث ينتظرني دائنون مذ أن فرّ آدم من الجنة مصحوبا بديون عليَّ ان اسدّدها إلى هذه المرأة الناعمة، المرأة الجميلة، التي تفتحُ جميع نوافذها لتسمعني أقول الكلمة المعجزة، ولا أقولها.

لا أقول لها: احبكِ، لأنني احبُ غربتي فيكِ.

شقائي وتشردي يتحولان إلى منحةٍ مباركةٍ عندما أشعرُ أنني احبكِ، كما أنكِ تحبينني هكذا: هائما في الكتبِ، غارقا في الموسيقى والأغاني والسُكر، أو نائما على المصاطب: تعشقينني مفلسا، وترنُّ ضحكتكِ في جميع الجهات عندما أطلبُ منكِ الزواج.

عندما أطلبُ منكِ الزواج تستفيقُ القبيلة من نومها، تُغلق الحدود بوجه العصافير، وتعلنُ املكِ النفير.

ـ لن أتزوجكَ قط، لأنني تزوجتكَ قبل أن تولد:
أنا املكَ، أيها الولد
وأنا طفلتكَ، أيها الأب.
دعنا نعش على هامش أولئك،
لنكن مركزا لنا..

هكذا تسحبين البساط من تحت الجميع، فتنتهي المعركة بهدوء:

دائما تنتهي المعركة بهدوء.

تذهبين إلى الأرق، وأذهبُ لأسكر في الحانات، فيما يعجز جمالُ هذه المرأة الجميلة أن يتغلب على جمالكِ، رغم أنه يجرجرني إلى هزيمة طفرتْ معي إلى العالم منذ صرخة الولادة.

لا أعرف لماذا أنتِ جميلة، كامرأة جميلة جدا، رغم أن هذه المرأة أكثر جمالا منكِ؟!

ينقصها شيئا ما لا أعرفه، أنا الذي أعرفكِ كما يعرف الطفلُ شكلَ أجفانه.

أعرفكِ، كما لا أعرفني عندما أكون ممزقا بين صداقة البرق وخصومات الغيوم.

أعرفكِ كما لا أعرفك عندما تفتحين أزرار قميصك، ليطير الحمامُ.

أعرفكِ عندما تسرقين رصيد هاتفكِ من هاتف املكِ النائمة، لتخبريني أن

الحمام لم يعد إلى الآن لينام تحت قميصكِ.

هذا ما يجعل من هذه المرأة الجميلة، هذه المرأة الغنية، امرأة لا أضعف منها، رغم أنني لا أعرف عاصفة أنحف من عظامكِ.

لماذا أنتِ جميلة؟!

أهمس في إذن الهواء، فتبتسمُ المرأة: هذه المرأة التي تبتسمُ لأنها تريد أن تبتسم، كأن كآبة هذا الكون التي في داخلي، لا تعني لها شيئا.

يا إلهي

ينقصها شيئا ما، هذه المرأة، التي لا أطلبُ منها سوى أن تصبر على قلبي ليحسم الأمر: لماذا لا تبدو جميلة مثلما أنتِ؟!

ربما ينقصها أن تسرقَ علبة سجائري:

تدخنُ، وترفعُ صوتها بالغناء، من النافذة، فينزعج الجيران: أصيحُ بها، فتمدّ رأسها إلى الشارع: هل الرجال قوّامون على النساء حتى في الغناء؟!

ينقصها شيئا آخر، ربما، هذه المرأة اللطيفة: هذه المرأة التي تقيس كلامي بالمسطرة، وتكلمني من وراء منديل، خشية أن اصيبها بعدواي.

ينقصها أن تفاجئني:

ـ أنا مريضة بكَ،

ولا اريد منكَ سوى أن تلفَّ وجهي بأنفاسكَ لأتمتع بموت عميق..

آهـ...

لم يتغلب الجمالُ كله على جمالكِ، ولا أعرف ماذا فيكِ لأنجو من هذا

الدوران حولكِ: أحج إليكِ، بلا موسم، وأرمي كلَّ جمال، سواك، بالحجارة.

ربما
كان وجهكِ البريء، وجهكِ الشيطاني، وجهكِ الذي لا أجد له وصفا.
ربما كان كذبكِ، ربما هو صدقكِ، ربما حزنكِ الطويل، هذا الذي يشدّني إلى عمود الشوق، ويجلدني بسوطه.

آه، لو أعرف لماذا أنتِ جميلة.

ربما هي الكتبُ التي أفسدتْ عليكِ كلَّ زواج،
مثلما خرّبت حياتي. .

أغنية لتحطيم أنف العالم

أتدربُ، مذ عرفتكِ، على أن أكون خاسرا.

أضفتكِ، مذ أول لهفة، إلى مفقوداتي، قبل أن يحصلَ ذلك، وأفقدكِ فعلا.

لم احبكِ
إلا لأن الحبَّ تنشره الصبايا،
على حبال الغسيل،
لتتبخرَ، من أرواحهن، الطعناتُ تحت الشمس.

لم أغرم بكِ
إلا لأنكِ مخمورةٌ بالألمِ وبالتوبيخِ، حدّ الثمالة.

وها أني أشربُ خمرَ غيابكِ،
واضعا وجهكِ على طاولة مخيلتي لأسكرَ:

أسكرُ
من أجل أن اجرجرَ العالمَ من شَعره،
وأرميه بين قدميكِ:

يصفعونكِ في البيتِ،
فأسقطُ، بدلا عنكِ، في الشارع.
أما امكِ فلن يغفر لها الشِعرُ،
وستفرّ الجنة من تحت أقدامها نحو الشيطان، لأنها تراني، عندما تبكين، طافرا من بين دموعكِ، فلا تحرّك ساكنا.

تطبخكِ وجبة من تعاليم،
وتبني،
من صفعاتها على خديكِ،
مطبخا تأكلكِ فيه العائلةُ..

احبكِ.
اقسمُ بالقمر،
وهو يرفرفُ جريحا فوق رؤوس العشاق،
إثر انفجار عبوّة ناسفة في قلبه.
اقسمُ بالخوف:
ينشرُ راياتِه فوق رؤوس متظاهرين،
في مسيرةٍ لا يعرفُ فيها أحدٌ أحدا.
لا يعرفون لِمَ هم هكذا محمولين على أكتاف الهتافات بدون فائدة.

احبكِ حتى الأخير.
حتى الأخير، حتى الأخير
رغم أننا نعيشُ مرحلة ما بعده.
حتى عندما يأتي يومٌ

ترشّنا فيه خراطيمُ المياه بدموع الحكومة،
حتى في وشايات الأصدقاء على بعضهم البعض، من أجل عضّةٍ من تفاحتكِ المنهوبة منذ أول غابة.

ماذا أكثر من هذا شِعر؟
ماذا أكثر من هذا جنون؟

غير أني لا أعرفُ كيف احبكِ دون أن أسكرَ.
دون أن أبيتَ ليلتي عند عتبة اسمكِ، فلا تمرين إلا وأنتِ مبتورة العواطف، في سيارة طوارئ.

أحسبُكِ تنادين الأقاصي من مستوصف الزمن، وتحسبيني أنادي الشِعرَ، ممتطيا حصان الرصيف، لكنني اغنيّكِ أيتها الشقية.

أخسركِ يوميا، وأكتبُ:
إذا كنتِ امرأة، فكوني امرأة حقا، لأنني إذا ما سكبتُ عليكِ من مياه فرحي، فلن تفيض على وجهكِ إلا صفعات اخرى، يزرعها الأصدقاءُ على خديكِ، واحدا تلو الآخر، فتدفعني لأشرب من أقرب غيمة ترفرفُ فوق رأسكِ:
أسكرُ
كي أحطم أنفَ العالم،
فلا يتحطم سوى رأسي، وأنا أضربه بالحائط.

لكِ
أن تختفين في شِعري دائما،

ولي
أن أقطعَ المسافة بين القصيدة والشِعر حافيا.

أمشي على شظايا مرآة هاويتي المنثورة طول الكتابة، فألمحكِ تقفزين، من جملةٍ إلى جملةٍ، وخلفكِ يقفزُ ثعلبٌ، سيواصل لعبته، حتى وأنا أحذفه من هذا المقطع.

غير أني مللتُ.

مللتُ أن احبكِ بهذا الشكل،
حتى صرختُ ثانية:
إذا كنتِ امرأة، فكوني امرأة حقا.
فخرجتِ من غرفة النقاط:
مشيتِ، كالحِبر، في عروق الحروف، ولم أجد لكِ معنى عندما وضعتُ كلماتكِ، تحت عدسة مكبرة:

يحتلني غيابُكِ،
واقترابي يجعلك تفلتين من قبضة الحضور.

احبكِ.
اقسمُ بكل ما فقدتُ من أصدقاء في الحروب، وبكل جرعة خذلان كرعتها، وأنا جالسٌ على شرفة الحب في الشوارع الخلفية.

أضمّكِ إلى مفقوداتي، واغنيكِ،
ثم أضحكُ جزعا،
لأن اللعبة هذه لا يفهمها أحدٌ سواي:

أنا الخاسرُ مذ قلتِ: احبكَ،
لأنني خالي الوفاض إلا من عطش الرحيل،
ولستُ بنادم.

أنا الرابحُ الأزلي مذ تدرّبتُ على اضطرابكِ بين مقبض الوردة وغصن الخنجر،
ولستُ فرحا:

لا فرق،
ففي الحالتين يصفعكِ أحدٌ ما،
فأسقطُ، بدلا عنكِ، في الشارع:
تجمعني املكِ مع دموعكِ،
لأعودَ مثل نهرٍ
ترمين زوارقكِ الورقية الى مجراه،
ولا أفعلُ شيئا سوى أن أسكرَ:

أرفعُ قبضتي عاليا لأحطم انف العالم،
فأرتطم بأول حاجز.
يركلني الجندُ على مؤخرتي فأطيرُ،
كقنبلة تنوير في ساحة حرب.

اراقبكِ تغرقين غيابا، واراقبني أفيضُ حبا لكِ،
يوما بعد آخر، حتى آخر ركلة..

كنتُ بحاجة إليكِ

«الحرية فعل مستمر،
ومتحوّل..»

رينيه شار

كنتِ وحيدة في الكلمة، وكنتُ أنحتُ شِعرا يؤنسكِ، لكنني كنتُ أسيرا.

كنتُ اريدُ أن أقول: إن الشاعرَ يقعُ أسيرا في قبضة أسيره.

كنتُ اريدُ أن يبقى الشاعرُ في قبضة الأسر، حتى يُطلق من الأسر سراحَ الأسر، ويشطبُ على الحرية، من أجل حرّية متحوّلة.

كنتُ أريدُ الشِعرَ حريةً، واريدُ الحرية شِعرا، وكنتُ اريدُ أن يبلغا الحبَ.

كنتُ اريدُ أن أبلغَ الحبَ الذي يعمّ الجسدَ بالحب، ويغسل الحبَ بالروح وبالحب.

كنتُ احبكِ بالحب وبالحرية.
احبكِ بالشِعر،
احبكِ بالجسد، وكنتُ بحاجة إليكِ.

كنتُ اريدُ أن أقول:
لا يقتلُ الشاعرُ نموذجه عندما يكون نبعا لا ينضب.

يأنسُ الشاعرُ بما لا يؤنس العالم، لأن عينيه مدرّبتان على الشك.

لا يأسر الشاعرُ السهولة.

وأنا كنتُ أنوي هذا عندما اعتليتُ المنصة، فتلعثمتُ ولم أنطق، لأنني رأيتُني قادما من مكان آخر: رأيتني خارج الوقت، وغير صالح لحنان فوق العادة.

كنتُ اريدُ أن اشيرَ إلى تلك الرائحة في جيفة المعرفة، إلى ذلك السُخام في باطن اللمعان.. إلى ذلك النباح في حنجرة العندليب، إلى أفكاري عن اليأس، ويأسي من الأفكار، و كنتُ بحاجة لأن اهاتفكِ.

كان حزني عليكِ عميقا، كلغز.
كان حزني عليكِ، كطير أخذتِ العاصفةُ أعوادَ سريره.
كان حزني عليك كشجرة تين، كشجرة تين هجرها الماءُ.
كان حزني عليكِ كوتر مقطوع.
كان حزني عليك كأغنية، كأغنية حزينة، كأغنية حزينة لا تُحزن أحداً.
كان حزني عليكِ عظيماً، عظيماً جداً، كسرير عليه تنام امرأة، طافية فوق طوفان دموعها.
كان حزني عليكِ، كنافذة مفتوحة، كنافذة مكسورة، كنافذة أغلقتْ على نفسها بهواجس من زجاج.
كان حزني عليكِ يتهشمُ، يتهشمُ كزجاج نافذة ضربها إعصارٌ عاصف من الحسرات.

كنتُ اريد أن أصرخَ :
كلّ صرخة تطالب بالحرية، تملأ العالم بالجدران.

كنتُ أريدُ أن أروي لكِ قصة الحب، واغني قصيدة الحرية :
كنتُ أقرأ عليكِ القصة، وهاتفكِ مغلق.
كنتُ أسمعُني، وأنا أخبركِ :
أن شاعرا بسيطا يحبُ امرأة بسيطة.
أن امرأة أشعلتْ حريقا، ثم دخلتْ فيه.
أن شاعرا دخل ليبحثَ عنها، فلم يجدها، فصار النار.

كان هاتفكِ مقفلا، وكنتُ اريدُ أن تفهمي :
ما في الشعلة إلا النار، وما في النار سوى الشعلة.
كنتُ أُريدُ أن تعرفي أن المرأة هي النار، وأن الشاعرَ هو الشعلة.
أن المرأة هي الشعلة وهي النار، وأن الشاعرَ هو الشعلة وهو النار.

كان هاتفكِ مغلقاً، وكنتُ اريدُ أن أخبركِ أن المرأة هي أنتِ، وأنني كنتُ بحاجة إليكِ، لأن الشاعر هو أنا.

كان قلبي يرنُّ، لأن هاتفكِ مغلق.
بقي هاتفكِ مغلقا إلى الآن، وإلى الآن بقي قلبي يرنُّ. .

كل يوم اشيّعُ عصفورا

كأنني كنتُ أتوقعُ أن تغيّرَ البراكينُ من أماكن فوّهاتها، فبعد ذلك العدد اللامتناهي من القُبل، لم اصدّق أن فمَكِ قد بقي في مكانه، إلا بعد أن نطقتِ . .

لم أعرف ان جسدكَ زورقٌ يتقن، الثبات كلما ضربته العاصفةُ، و لا أنني مثل ورقة أتقلبُ بين فصول رغبتكِ، لكنني ثبتُ أمام هيجانكِ، راضيا بالغرق في أطيانكِ حدّ الاختناق، حدّ أن يأخذني فمكِ إلى أن اكتشفني عضوا عضوا.

تنحتيني قبلة قبلة، فأصيرُ كما تشتهين أن أصيركِ.

احبكِ لأنكِ ماهرةٌ في هذا، وفي أنكِ تعرفين أنني لا أفعلُ شيئا من دونكِ.

إنني ماهرٌ في اشتقاقكِ من الهَوس، ومن المشي في الليل تحت نور الخيال.

إنني ماهرٌ في النزهة بين الكمائن: ماهرٌ في التسللِإلى الخطر من مسَام منع التجوال، وفي الوقوف ضد حياتي.

أعرفُ أنه الصباح عندما أذهبُ إلى الوظيفةِ:

عندما أذهب إلى وظيفتي أعرفُ أن الصباحَ لا وجود له إلا في نشرة الطقس.

لا صباح من دون وجهكِ.

كلُّ هواء من دونكِ يعني أنني أتنفسُ نسخة مزيفة من صباحكِ:

صباحكِ مذهبٌ خاص، أتباعه يرفعونكِ بين الرايات، رايةُ تمسحُ التجاعيد عن وجه العالم.

صباحكِ يأتي بالنهار بكامل قيافته.

صباحكِ بدلةُ الماء، وعُري الينابيع..

صباحكِ..

صباحكِ راحَ: شطبه اليسارُ ومحاه اليمينُ، ولم يبق لي منه غير أن ادخن سجائري تحت سقف صحتي الرديئة، وأنتظر أن أموت تحت الشجرة التي تفكرُ فيكِ، كلما أسندتُ رأسي إلى جذعها.

آهـ...

إنني ماهرٌ في ابتكار الحلول التي تفاقمُ السدودَ، وتشعلُ النارَ في قش اشتياقي.

إنني ماهرٌ في العراك مع الكلمات التي لا تحمل من معانيكِ شيئا:

ماهرٌ في تمزيق اغنياتي، وتخريب قصائدي:

ماهرٌ في ابتكار العاصفة التي تقلبُ عليّ زوارق طمأنينتي.

الحربُ معي، وضدي، هي هوايتي الوحيدة.

أرمي على اللاأحد إطلاقاتي، وكل يوم اشيّعُ عصفورا يسقطُ قتيلا في طريقه إليكِ..

كم برق أرسلتُ ليضربَ نافذتكِ؟
كم أغنية غنيتُ لأقتلع من عيني العالم دمعة..؟!

كنتً، قبلكِ، أعيشُ كتاب الليل، مع هذه أو مع تلك، لكنني أغلقُ الكتابَ، بعد ذلك، منتزعا منه صفحة هذه وصفحة تلك، لأنني لا أطيق انشطاري، ولا أحترم تعددي.

كنتُ، قبلكِ، أشربُ كأسي بفخامة مَن عاد من الغزو بألف جارية، غير أن قلقا ما سرعان ما يساورني، فلستُ هذا ما أرغبُ أن أكونه.

وعندما ذهبتُ لأقرأ كتبا أبحثُ فيها عني، لم أجدني، ووجدتكِ بيني وبيني، لكن هذا الذي بيني وبيني كان يفلتُ، فجأة، من بيننا، فاضيعكِ.

صرتُ أتبعُ امرأة، كل امرأة، ولا أصل إلى حنانكِ..

صرتُ أصرخُ: مَن أنتِ، وأينكِ؟! لكن صرختي لم تكن إلا داخل المكتبة، فلم اقابلكِ إلا بعدما طرتُ خارج معرفتي، لأنكِ معرفة اخرى: وعي شقي أنتِ، طفلة مجنونة وعاقلة أنتِ.

سماءٌ تفرُ من السماء أنتِ..

قلتِ: احبكَ،
فعرفتُ أني سأخسركِ،
ولأنكِ تحبينني حقا، هيأتُ عنقي إلى المشنقة، وأحببتكِ.

احبكِ لأنني لا اعرفُ غير هذا،
لا أملكُ إلا هذا.

أحبكِ لأنكِ ماهرةٌ في الحزن،
وفي أنكِ تعلمين أن مهارتي هي أن لا أكون شيئا من دونكِ. .

لمعانُ غيابكِ يدلُّ على أنكِ اللؤلؤة. .

ليس عليَّ أن أتذكركِ، فالنسيانُ لا يسع طوفانَ جمالكِ الذي يقتلع السدودَ، كلّ السدود، التي تحصّنتْ خلفها قواربُ ذاكرتي.

لا لطفولتكِ أو ليأسكِ، ولا لتحطيمكِ؛ زجاجَ نوافذ النواميس مكان إلا في هذا الألم الذي أخوضُ في أيامه العميقة، فيجرفني إلى تقاويمَ ليس فيها إلا أنتِ، إلا انشقاقكِ عن العائلة، إلا هروبكِ الذي لا ينتهي بتمزيق الكراريس، بل بالجلوس على السياج، ورجم الملاك الذي عبثا يحاول رفع غبار قدميكِ عن صفحات كتاب الطريق المؤدي إلى خارج المدرسة.

تحفرين وجودكِ في وجودٍ لا وجود له إلا خلف اسطورة المرأة التي تولد في قصائد غير مكتوبة، لكنها تقود أعنّة الخيال إلى أرخبيلكِ المحفوف بالأمان والهلاك معا.

لا أحد، حتى أنتِ، يفهمُ أن نسيانكِ يحرمني امتياز أن أكون خاسرا يليقُ بطراز فقدانكِ الغامض، فقدانكِ الباهر، عندما ضعتِ في العالم، عندما أشعلتِ الحريقَ، وأفنيتِ نفسكِ فيه، مثل شرارة:

تلاشيتِ فلم يعرف أحدٌ عنكِ شيئا إلاي، أنا الذي أعرفُ اللاشيء عنكِ، وهو كافٍ لأن أنفذ من خلال الاحتمالات إلى أشكالكِ المؤجلة: أشكالكِ

التي تجعل من الكتابةِ مجرّة آهلة بكواكب من اليائسين: أولئك الذين يصنعون الربيع للوردة، وهم في طريقهم إلى الخريف.

ذلك ما يؤهلني عاشقا يعبثُ بمصيره الذي فقد مغزاه، فإما أنتِ أو أنتِ، ولا ثالث إلا هذا الشتات الذي يجدلُ مني شاعرا مهمَلا، يكتبكِ في الحانات، ويقرأ قصائده على حزانى يعرفون، أكثر منه، أنكِ ما عدتِ له، ومع ذلك ينصتون إليه، لأنه يبعثُ نداءا خفيا في أعماقهم إلى السطح.

ذلك ما يجعلكِ عنصرا غير مكتشفاً، لأن في محيط روحكِ قارات اخرى تعجزُ عن الوصول إليها زوارقُ البلاغة، ويرتبكُ أمام خضّتها محيط المجازات.

العالمُ يحكُّ رأسه حائرا عندما تمرين، ومن جميع النوافذ تطلُّ رؤوسُ عشاق انتظروكِ كآلهة تأمر الساعات أن تعلن الحبَ في خوابي الزمن.

كان الموتُ يقف على مقربة منكِ، وكنتِ فخورة أن تمنحيه برهة من اللعب، وهم يضعونكِ على الحد: بين أن أُقتلَ أو أُقتلَ، ففضلتِ أن تذبحي قلبكِ بموساكِ، عسى أن أبقى حيا فيه.

لماذا فعلتِ هذا، وأنت الأعرفُ بي:
الأدرى أنني أملكُ من الشجاعة مقدارا يجعلني أقبلُ بالهزيمة؟!
لِمَ أدميتِ بياض هذا الكتاب بدمكِ؟!

كان الصدقُ يخافُ صدقكِ، وأنتِ تحرثين الأرض: ترشين بذورَ الاضطراب تحت خطوات الراعي الذي يتملقه القطيعُ.

ـ الشيطان أولى بالورد، عندما نكتشفُ عطر وجودنا من خلاله.
لا حرام في العالم: الحرامُ الوحيد أن لا أحبكَ.
لا أب إلا البحر، وأنتَ تعوم فيه من خلالي، وأغرقُ فيه من خلالكَ.
لا أم إلا تلك الشجرة، التي أتسلقها لأنكَ تجلسُ هناك في داخل الثمرة.

كنتِ ترسلين قبلة عبر الهواء، لتولد الحمامة.
كان غناؤكِ يأسر العصفور، ويجعل للعاصفة ريشا.
كانت أنفاسُكِ تكسو الصباحَ بعادات الندى.
كانت نظراتُكِ تلاطفُ السائرين في نومهم، وتشطفُ جروح الحزانى.

لا يمكن إقصاء حضوركِ في حياتي إلا بإقصاء حياتي، كما لا يمكن أن أحدّه بالسنوات، فلستِ الحاضر، ولا الماضي: أنتِ الوقتُ الذي لا تشير إليه الساعاتُ، و لا يرنّ لقدومه الزمنُ، فليس لوقع أقدامكِ من رصيف، ولا لجلوسكِ من مصطبة.

خارج الجميع أنتِ، خارج التسمية.

آهـ...
لم يكن امتزاجنا ينحدرُ من هذا الحيّز الضئيل الذي يطلقون عليه الحب، بل هو من التشرّد في الأغاني، من النوم بين صفحات الكتب، من المشي في عروق الكلمات، و من عبث وجودنا ضالعين بالإثم أو بالطهر.

ولهُكِ بي، ومن ثم شغفي، هو من جنسكِ المتعذّر معرفة انحداره، فلا أصل إلا أنتِ: لا قبيلة إلا أنت، ولا أعراف إلا قفزاتك الكونية بين الشِعر والموسيقى، بين المطر وصيحات البرق، وبين مفاصل الجمرة التي لا تأكل إلا نفسها.

مادام التيه هو مَن دلني عليك، فسيأخذني إليكِ ثانية.

التمزقُ، وحده، مَن سيجمعني بكِ.

لا مكان لأقدامي إلا حافة الهاوية:
هاوية جمالكِ، أو جمال هاويتكِ.

احبكِ لأن هذا هو الشفاء الوحيد من مرض الوقوع في حب امرأة اخرى، ففي ذلك خيانة كبرى للجمال وللحب.

هكذا يقودني اختفاؤك إليكِ، فليس ثمة ما يدلُّ على أنكِ اللؤلؤة إلا لمعانُ غيابكِ، وليس ما يثبتُ أنكِ المرأةُ التي افنيتُ حياتي في حلّ لغزها إلا لغزكِ وأنتِ تتشعبين في طرقي: تفتحين كلَّ باب أطرقُه بحثا عنكِ، وتشيرين إلى هناك، حيث لا يمكن أن اقابلكِ إلا في وجود يتعذر العثور عليه في كل مكان، سوى الشِعر. .

قصيدة نثر لشاعر جاهلي

في رأسي عواصفُ قديمة هبّتْ من مكان بعيد، ولم تصل إلى أهدافها بعد، رغم أنها أطاحتْ بكل شجرة، شتت كلَّ مسافر، وأكلتْ بخطواتها الأقدام والطرق.

حصل ذلك مذ أن تسلل قرصانٌ ما إلى أسرارِكِ، ثم ضغط على الزر، فمحا عالما صنعناه بهواجس الهاربين من العالم الذي لا يجيد سوى جَلد أرواحنا بسوط المواطن الصالح: المنصاع لأوامر القبيلة، لأن الحياة برمتها لم تعد غيرَ هذا الغزو، لكن.. أيّ عالم هذا الذي يقضمه فأر الكتروني، ليُشعل بي نارا من الشك، تلتهمُ كل شيء؟!

هل أن ما كان بيننا محض افتراض، لكننا توهمناه حبا، لأن الحياة التي جئنا إليها، غير تلك الحياة التي جئنا منها؟

أعرفُ أن ثمة حياة اخرى بين الحياتين، غير أنها ضاعت، فجأة، مثلما يضيعُ نيزكٌ في الفراغ العظيم، أو مثلما يضيعُ عودُ ثقاب في الحريق..

لكن
آه، هل لا زلتِ لابثة في داخل قلبكِ؟!

لقد وصلتْ أديانٌ تأكلُ الخبز من أفواه أتباعها، وهناك ألف من الإبل الاصطناعية قد أُعدتْ، لتسير في موكب زفافكِ، الذي لم تأتِ على ذكره حتى روايات جدتي في الشتاء، وأنا أصغي إليها، محدقا بالموقد.

لم أعرف ساعتها أنني كنتُ انظرُ إلى المستقبل وكيف، في موقد الحضارات، سيخبو جمر حياتي، فأهجرُ البيت والمدرسة، ولأنتهي إلى هذا الذي لا ترين أو ترين..

أنتهي إلى هذا التفاؤل اليائس، حيث إطلاقة فاسدة يمكنها أن تحفر على وجه الصياد جرحا، في مجراه تسيلُ دمعة الحمامة الذي يطاردها، من شجرة إلى شجرة.

لستُ أعبأ، الآن، في ما لو كنتُ قد خسرتُ أو ربحتُ، فالمعركة بدأتْ وانتهتْ قبل أن أولدَ، قبل أن يقتل قابيل شقيقه هابيل، أو قبل أن يقتل هابيل شقيقه قابيل..

ما الفرق؟

هناك خطة محكمة، وعبثا أمزقُ السبل التي تأخذني قريبا أو بعيدا عنكِ: ما من أرض أخرى لأتجنبكِ فالطرق، أبدا، هي التي تصنعُ الخرائطَ، كما أنكِ ما عدتِ تلك التي أعرفُ، ولا أنا..

لم أعد ذلك الغزال المنذور للركض في براري هواجسه المفتوحة على الخطر: ما عدتُ مجنونا ولا عاقلا، ولم اعد اطاردُ الأفلام من شاشة إلى شاشة: لم يعد يعنيني الأمر، أي أمر: أصرخُ: «اليوم خمر، وغدا خمر!» و مثل شاعر جاهلي أبكي على الأطلال: أرودُ مواقع الكترونية شاحبة، أو

أتعقبُ اسمكِ في الباحث، ثم حين أتعبُ أسندُ ظهري إلى عامود كهرباء: أقرأ قصائدي على جمهور من الأشباح، جاء ليتوّجني أميرا على عشاق مفترضين مثلي، وهو يضعُ على رأسي إكليلا من الصحراء، أو يدسُّ في جيوبي حفنة من الرمل.

لكنني، أكثر الأحيان، اعاقرُ الخمرَ وحيدا، وأنام في مفترقات الطرق، لعلَّ قافلة ما تحمل أخبار غباري إليكِ، أو تأتي بجَراد غيابكِ ليقضم أطراف سنابل ذابلة في ذاكرتي، نسي القرصانُ، ولا أعرف لماذا، أن يقضمها كما قضم حياتي.

ثالثاً ـ موسيقى

ـ «الحبُ فنٌ، بوساطته نعيقُ تقدم الزمن»

تلك حكمتكَ التي أبقتْ روحكَ قوية جدا، و هو ما أنجاكَ من النجاة، وذهب بكَ إلى أصعب الحب.

هو ما قادكَ إلى ابتكار نموذجكَ الفاتن، نموذجكَ المستحيل، الذي أيقنتَ مبكرا أنكَ لن تجده دون أن تقتلَ، في طريقكَ إليه، كلَّ النماذج..

ـ «اقتلوا الزمن بالحب..»

تغني أينما حللتَ، وها أنتَ من نافذة قطار، ترى إلى صبي أشقر الروح على دراجة هوائية، ذاهبا إلى موعده الغرامي الأول، البريء: يشقُّ طريقه، وسط زحام الحياة، مثل نبلة تعرفُ أن القلبَ البديع، القلب الذي ينتظرُ طعنتها، لم يولد بعد، لكنها تزحفُ باتجاه المكان المختار، حيث يمكن أن تحدث معجزة ولادته.

لا السجون التي استضافتكَ، وأنتَ تحترفُ غواية السفر عبر الحدود، أوقفتْ نمو أحلامكَ المستحيلة خلف القضبان: لا الجوامع، لا المعابد، لا الكنائس، التي صليتَ وسجدتَ على ترابها، تمكنتْ من ترويض حصان

ذاتك المنطلق أبدا، إلى ما خلف الأديان والعقائد، لا . . و لا البلدان التي دخنّتَ سجائرها، شربتَ رديء كحولها، وتعرّفتَ على صبايا أرصفتها، غيّرت من عاداتكَ في الطيران وأنتَ جالسٌ في مكانكَ.

حملتَ حياتكَ، مثل ساعي البريد:

عند كلّ باب لكَ دمعة خذلان، وفي كلّ مكان لكَ لحنٌ تعزفه غربتكَ عن جميع النساء اللواتي ابتكرتْ، ثم انصرفن عنكَ إلى العطور وإلى الملابس، لأن الروح كانت، أبدا، هي عطركَ الأقدس، لكن ذلك لم يمنع من أن تكون لكَ مقايضات سرّية مع الجسد، تبرمها رغبتكَ في أن تكون مخلصا لهذا الفن، حتى وأنتَ في ذروة الحِداد على هذا العالم البائس:

تمنحُ القبلةَ امتياز أن تخلقَ الرحيق للوردة،
ومن الهمسة
أن تعيد ابتكار العاصفة.

نظرتكَ إلى الوجود تلخصها صبية رأيتها في منام، لا أحد يعيرها أدنى أهمية، لكنكَ طاردتها في الكتب وفي السينما، في الإفلاس وفي الحانات: في الخائبات، وفي الشوارع الخلفية، حتى إذا قابلتها أخيرا منحتَ نفسكَ امتياز أن تكون خاسرها الحقيقي، لتربح روحُها النجاة من مأزق الشنق بحبل أغلاطها الفاتنة، أغلاطها التي منها تولد البراءة، ومنها يبدأ الانشقاقُ عن القطيع:

ذلك مما يحيطكَ بوَحدة لا تطاق: لا أمرَّ منها، لا أعذبَ، ولا أشقّ. .

ذلك أيضا مما يمنحكَ دموعا لن تسفحها إلا بعد أن تتأكد من أنها نظيفة،

فأنتَ المستكشفُ لزلازل لا يمكن وقوعها إلا في أرض تبتلعُ نفسها أمام خضّة الطفولة، إذ تقتحم عالم الكبار، لتربكَ القوانينَ: تطيحُ بالوهم، ثم تضعُ الجميعَ على محك أنفسهم.

ذلك ما يؤكدكَ غريبا في السائد من الشِعر، وفي الشائع من الحب.

ـ «مازلتُ كما أنا،
أُعيقُ تقدم الزمن إلى الأمام»

تكتبُ إلى أصدقائكَ من كل مكان، و في خيالكَ صبيةٌ: ربما كبرتْ، ربما ماتت، ربما أُغتصبتْ، ربما شاختْ، وأنتَ على دراجتكَ الهوائية مازلتَ تطوفُ أزقة العالم، ذاهبا إلى موعدكَ الغرامي الأول البريء، مثل صرخة، تُشتت نفسها في كل الجهات، مصممة على أن تلتقي بأصدائها، لكن هيهات: لا صدى.. وما من يسمعون..

المحتويات

إهداء ٥
أولا ـ موسيقى ٩
ثانيا ـ سلة الرحيق ١٣
أغنية الكرة الطائشة ١٥
كانت تمطر ريشاً ١٧
افتح يا سمسم ٢٠
أغنية النقطة تحت باء بغداد ٢٣
الخيط ٢٧
الملوية.. ..... ٢٨
مثل نشيد صدأتْ بين أسنانه الحروب ٢٩
أغنية فارسية ٣٢
كسوط يجلد نفسه ٣٣
أكرهكِ ٣٦
أخافُ من مرآتي أن تكسرَ جمالكِ ٤٠
سلة الرحيق ٤٥
أبايعُكِ على إرث الجَمال ٥٠
كيف يكون الجمال صاعقا..؟! ٥٦
أمشي ضائعا في جمالكِ ٦٠
جغرافيا اخرى للتحليق ٦٥
أغنية من قعر زجاجة ٧١
كيف خسرتَ الوردة، كيف ربحتِ العاشق؟! ٧٤
أطوفُ حولكِ، كما تطوفُ ريشة حول عاصفة ٧٩
الحب حسب التقويم البغدادي .. ٨٣
أغنية لتحطيم أنف العالم ٨٨
كنتُ بحاجة إليكِ ٩٣
كل يوم أشيّعُ عصفورا ٩٦
لمعانُ غيابكِ يدلُّ على أنكِ اللؤلؤة ١٠٠
قصيدة نثر لشاعر جاهلي ١٠٤
ثالثاً ـ موسيقى ١٠٧